(١)

من حياة المرسلين

لا فاضل

من حياة المرسلين

☆ آدم .. بين الخير والشر

☆ إدريس . . يصعد إلى الجنة

☆ نوح . . يحمل العالم في سفينة

☆ هود . . ومدينة الأعمدة

بقلم : عبد السلام بدوي

الطبعة الثانية

دار المعارف

تصميم الغلاف :

محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

من حياة المرسلين

آدم عليه السلام

بين الخير والشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾

[سورة ص الآية ٧١]

الملائكةُ مِنْ نُورٍ :

خَلقَ اللَّهُ – تَعَالى – المَلائكةَ مِنَ النُّورِ ، وَجَعلهُم طَوائفَ مُنْتشِرينَ فى الكَوْنِ انْتِشَارَ الضوْءِ أوِ النُّور ، خُلقوا مِنْ أجْلِ عِبادَة اللَّهِ الوَاحدِ الأَحدِ ، يسبِّحونَهُ دَائمًا ، ولا يعْصُونهُ أبدًا ، لأَنَّهمْ معْصومُونَ مِنَ الخَطأ .

﴿ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾(١) .

والملائكَةُ لايتزوَّجُون ولايَتناسَلُونَ مثل سائِر الْمَخلوقَات .

الجنُّ مِنْ نارٍ :

ثُمَّ خَلقَ اللَّهُ تَعالَى عَالَم الجِنِّ قَبْل آدمَ أيْضًا ، خَلَقَهُمْ منَ النَّارِ .

يقُولُ تَعالَى :

﴿ والجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ منْ نَّارِ السَّمُومِ ﴾(٢) .

---

(١) سورة التحريم : الآية ٦ .
(٢) سورة الحجر : الآية ٢٧ .

والمخلوقُونَ من النَّارِ ، فِى طَبْعِهِم الطَّاعَةُ والمعْصيَةُ معًا ، وكانَ الجِنُّ يَسْكنونَ فى الأرْضِ ، ولكن فى اسْتِطاعَتِهِم التَّنقل بَيْن السَّموات والأرْض بغَيْرِ واسِطةٍ ، وللْجنِّ أعْمَارٌ مِثْل الإنْسانِ تَمامًا ، ثُمَّ يَمُوتونَ بَعْدهَا ، ولكنَّ أعْمارَ الإنْسَان تُحْسبُ بالسِّنِين ، أمَّا أعْمارُ الجنِّ فَهىَ تُحسبُ بالقُرونِ (والقَرْن مائةُ عَامٍ) يَعْنى أنَّه قَد يَعِيشُ الجنُّ سَبْعمائَةِ عَامٍ مَثلاً أوْ ألْفَ عَامٍ ، إلخ .

وكانَ إبْليسُ منَ الجنِّ ، وكَلمةُ إبْليسَ مَعْناها : اليائِسُ يأْسًا مُطْلقًا مِنْ رَحْمة اللَّهِ تَعالَى ، وكانَ قَبْل ذَلكَ يُسمَّى عَزازِيل ، يَعْبدُ اللَّه كَثيرا ويسْجدُ لَه فى كلِّ شِبْرٍ منَ السَّمواتِ ، حتَّى صارَ فى دَرَجةِ الملائكَة المقرَّبينَ ، وكانُوا يُسمُّونَه طَاووس الملائِكةِ .

آدمُ مِنْ طِينٍ :

ثمَّ أرادَ اللَّهُ أنْ يَخلقَ عَالَمًا جَديدًا مِنَ الطِّينِ ، فَقالَ للْملائِكةِ : ﴿إنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾[1] .. وهُو آدمُ-عَليهِ السَّلام .

---

(١) سورة ص : الآية ٧١ .

﴿ فإذَا سَوَّيتُهُ ونَفَختُ فِيهِ مِن روحِى فَقَعُوا لَـهُ سَـاجِدين ﴾(١).

طَلَبَ اللَّهُ تَعالَى مِنَ المَلائكَةِ أنْ يَسجُدُوا لآدَم ، لَيسَ سُجودَ عِبادَةٍ ، لأنَّهُ لا يَجوزُ السُّجودُ إلا للَّه – سُبحانَه – وإنَّما هُو سُجودُ اعْتِرافٍ بقُدْرة اللَّهِ – تَعالَى الَّذِى نفَخَ الرُّوح فى هَذا الجَسَدِ الطِّينىِّ ، فَصَارَ إنسانًا عَالمًا رَاقيًا ، أرْقَى مِنَ الجنِّ ، ومِنَ الملائِكةِ أيْضًا بِعِلْمه ، ومِنْ ثَمَّ صَارَ خَليفَةً للَّهِ تَعَالَى فى أرْضهِ الوَاسِعةِ :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ للْمَلائِكَةِ إنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(٢).

إبْليسُ لا يَسْجدُ لآدَمَ :

وسَجَدَ الملائكةُ كلُّهُم أجْمَعُون لآدَمَ – عَليهِ السَّلام – بَعْد أنْ خَلقَه اللَّهُ مِنْ طِينٍ ، ونَفخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، سَجدُوا تَنْفِيذًا

(١) سورة ص : الآية ٧٢ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٣٠ .

لأمْرِ اللَّهِ تَعالَى ، فَلَيْسَ مِنْ طَبْعِهِمُ المخالَفةُ والعِصْيانُ ، إلا إبْليسَ ، وَهُوَ مِنْ عَالَمِ الجنِّ المخْلُوق مِنْ نارٍ ، وفى طَبْعِه المخالَفةُ والعِصْيانُ ، فإنَّهُ امْتَنعَ عَنِ السُّجُودِ لآدمَ وقالَ :

﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾(١).

لَقَد غَلبه طَبْعهُ ، فأعْلَنَ العِصْيانَ .

فَقالَ لَهُ اللَّهُ تَعالَى :

﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وإنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾(٢).

أى : اخْرُج مِنْ رَحْمتِى حَيثُ كُنتَ تَنْعمُ بهَا معَ الملائكَةِ .

ويا لَيتَ إبْليسَ طَلبَ مِنَ اللَّهِ أنْ يَغفرَ لهُ هَذا الخَطأَ ، ولَوْ طَلبَ مِنَ اللَّهِ المغْفرةَ ، لَغَفرَ لَهُ ، لأنَّ اللَّه غَفورٌ رَحيمٌ ، وَاسِعُ المغْفرةِ والرَّحْمةِ ، ولكنَّ إبْليسَ بَدلاً مِنَ التَّوبَةِ وطَلبِ المغْفِرةِ ، طَلبَ مِنَ اللَّهِ أنْ يَتركهُ حيًّا ، وأنْ يُؤجِّلَ مَوتَه إلَى يَومِ القيامَةِ ، فَقالَ :

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٢ .

(٢) سورة الحجر : آيتا ٣٤ ، ٣٥ .

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[١].

وأَنْظِرنى ، يَعْنى : أَجِّلْ مَوْتِى .

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾[٢].

طَلَبَ إِبْليسُ عَدَمَ مَوْتِهِ قَبْلَ يَوْمِ القِيامَةِ ، لِيقُومَ بتَضْلِيلِ بَنِى آدَمَ وإِغْرَائِهِم ، ليَعْصُوا اللَّه ، ويَكُونُوا مَعهُ مِنْ أَصْحَاب جَهَنَّمَ .

آدمُ أَكْثَر عِلْما مِنَ الملائِكَة :

وعَلَّمَ اللَّهُ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّهَا ، فَعَرَفَ آدمُ اسْمَ كُلِّ شَىْءٍ ، وَرَأَى الدُّنْيا كُلَّها ومَا فِيهَا مِنْ حَيوانَاتٍ ونَباتَاتٍ وجَمادَاتٍ ، ورَأَى أَيضًا كُلَّ مَا يَصْنعُ النَّاسُ عَلَى الأَرْضِ مُسْتَقبلاً بمَا فِيهَا مِنْ مُكْتَشَفاتٍ ومُخْتَرعاتٍ ، تصْلحُ لهذِه الأَرْض ، وتكفُل لِمَن عَلَى سَطْحهَا كُلَّ وَسَائِلِ الحَيَاةِ الَّتِى أَرادَهَا اللَّهُ لبَنِى آدَمَ ، حَتَّى يَوْم القِيَامَةِ .

ثُمَّ عَرضَ اللَّه تَعالَى هذهِ الأَشْياءَ عَلَى الملائِكةِ ، وقالَ لَهُمْ :

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٤ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٥ .

﴿ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ ﴾ (١).

فَرأَى المَلائِكةُ أَمَامَ أَبْصَارِهِمْ أَشْياءَ جَدِيدةً عَلَيهِم ، لَمْ يَرَوْهَا مِنْ قَبْل ، فَقالُوا :

﴿ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ (٢).

فَقالَ اللَّهُ لآدَمَ :

﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ (٣).

وكَانَ هَذا مِن اللَّهِ اخْتِبارا لآدمَ ، ونَجحَ آدَمُ فى الاخْتِبارِ ، وأَخْبَر الملائِكةَ بأَسْماءِ هذِهِ الأَشْياءِ ، وأَجْزائِهَا ، وفَوائِدهَا :

﴿ فَلمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِم ﴾.

قالَ اللَّهُ لِلْمَلائكَةِ :

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣١ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٣٢ .
(٣) سورة البقرة : الآية ٣٣ .

﴿ أَلَمْ أَقُلْ لكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمواتِ والأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ومَا كُنتُم تكْتُمُونَ ﴾(١).

وهُنَا عَرفَ الملائِكةُ أَنَّ آدَمَ أَكْبَرُ عِلْما ومَعْرفة مِنْهُم بِشئُونِ هذِه الأَرْضِ فى هَذَا العَهْدِ الجَدِيدِ .

حَـوَّاءُ :

قَامَ آدَمُ منْ نَوْمِهِ فَوجَدَ حَوَّاء بجَانِبِه ، خَلَقهَا اللَّهُ تَعالَى مِنْ أَحَدِ أَضْلاعِهِ .. يقُولُ تَعالَى :

﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾(٢) يَعْنِى لِتكُونَ زَوْجةً لآدَمَ – عَلَيهِ السَّلامُ – وقَالَ لَهُ :

﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتكُونَا مِنَ الظَّالِمينَ﴾(٣).

وقَالَ لَه : يا آدَمُ احْذَرْ مِنْ إِبْليسَ ، حَتَّى لا يَغُرَّك ، ولا يفْتِنَك ، ويُوسْوسَ لَكُمَا لِتَقعَا فى مَعْصِيتِى وتُخالِفَا أَمْرِى .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣٣ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ١٨٩ .
(٣) سورة البقرة : الآية ٣٥ .

طَلبَ اللَّهُ مِنْهُما أَنْ يَعِيشَا فى الجَنَّة ، يَأْكلانِ مِنْ فَاكِهَتها وطُيورِهَا وخَيْرِها ، ويَشْربانِ مِنْ أَنْهارِهَا ، إلا شَجَرَةً واحِدةً ، فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمَا ، فَما هِيَ حِكايَةُ تِلْكَ الشَّجَرةِ ؟

غِذَاءُ الجَنَّة :

إنَّ غِذَاءَ الجَنَّة يَتحلَّلُ كُلُّه دَاخِلَ الجِسْمِ ، ولَيسَ لَهُ بَقايَا ولا فَضَلاتٌ ، فَلا يُوجَد هُناكَ بَولٌ ، ولا بُرَازٌ ، ولا عَرَقٌ ، ولا دُمُوعٌ ، ولا مُخاطٌ ، ولا بُصاقٌ ، إلا شجَرَةٌ وَاحِدةٌ مُحرَّمَة فَإنَّها مِنْ شَجرِ الأَرْضِ... إذَا أكلَ الإنْسانُ مِنْ ثِمارِها .. يَبْقى مِنْ هذِهِ الثِّمارِ فَضَلاتٌ .. لابُدَّ أَنْ تَخْرجَ مِنَ الجسْمِ .

عَاش آدمُ وَحَوَّاءُ فى الجَنّةِ يَنْعَمانِ بنعِيمِها ، ويَأكلانِ مِنْ ثِمارِها ، ويشْرَبانِ مِنْ أَنْهارِ اللَّبَنِ والعَسَلِ المصطفَّى ، الَّتِى خَلَقَها اللَّهُ فى الجَنَّة .

إبْليسُ يَحْلفُ كَاذِباً :

وَبدأَ إبْليسُ يُحارِبُ آدَمَ وَحَوَّاءَ ، فَوسْوَس لَهُما فِي الجَنَّةِ ، ليَأْكُلا مِنْ تِلْكَ الشَّجَرةِ الَّتِى حَرَّمهَا اللَّهُ عَلَيهِمَا .

فَقالَ لآدَمَ : لماذَا لا تَأْكُل مِنْ هذِهِ الشَّجَرةِ ؟

قالَ آدَمُ : لأن اللَّهَ قَدْ نَهَانِى عَنِ الأَكْلِ مِنْها .

فَقَالَ لهُ إبْليس: إنَّها شَجَرَةُ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلَى ولا يَفْنَى يَاآدَمُ، لَوأَكَلْتَ مِنْها فَستَكُونُ خَالدًا فى هَذا النَّعيم، فَكُلاَ مِنْهَا.

قَالَ آدَمُ : لا، إنَّ اللَّهَ نَهانِى عَنْها، وأنَا لاأُخَالِفُ أَمْرَ ربِّى.

فَأَقْسَم لَهُما إبْليسُ باللَّهِ العَظِيم ، أَنَّهُ يَنْصحهُمَا بذلكَ ، وأَنهُ يُريدُ لَهُما الخَيْر الَّذِى لا نِهَايةَ لَهُ .

يقُولُ تَعالَى :

﴿ وقَاسَمهُمَا إنِّى لكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾(١)

أَىْ أَقسَمَ لَهُما باللَّهِ أَنَّهُ نَاصِحٌ أَمِينٌ ، وهُما لَمْ يَعْرفَا الكَذِبَ ، ولا يَخْطُر بِبَالِهِما أنَّ مَخْلوقًا يَجْرُؤ عَلَى الحَلِفِ باللَّهِ كَاذِبا ، فَقالَتْ حوَّاءُ لآدَمَ – عليه السَّلامُ – : لَقَد أَقْسَم باللَّهِ يَا آدَمُ أَنَّهُ ينْصَحُنا ، وصَدَّقَا القَسَمَ الكَاذِبَ ، ومَدَّتْ يَدَهـا ، فَقَطَفَتْ ثَمرةً مِنَ الشَّجَرةِ المحرَّمَةِ ، ووضَعَتْهَا فى فَمِهَا ومضَغَتْهَا ،

(١) سورة الأعراف : الآية ٢١ .

ثُمَّ امْتَدَّتْ يَـدُ آدمَ فَقَطَفَ ثَمَرَةً أُخْرَى ومضَغَها .. فَأَكَلاَ منهـا .

بقَايَا الشَّجرةِ المحرَّمَة :

وَعنْدَمَا تَمَّ هَضْمُ ما أَكلا مِنَ الشَّجَرَةِ المحرَّمة ، بَقِيَ فى الجِهَازِ الهَضْمِىِّ لِكُلٍّ مِنْهُمَا بقايَا وفَضَلاتٌ تريدُ أن تخْرُجَ مِنَ الجِسْمِ ، وكَان أَولُ هَذِهِ الفَضَلاَت هُوَ الْعَرَق ، وَانْكَشَفَتْ مَسَام الجِسْمِ كُلِّه.. لِيَمُرَّ منْها العرَقُ إِلَى خَارِجِ الجِسْمِ .. ثُمَّ ظَهَرَتْ لَهُمَا فَتْحَتَا البَوْلِ وَالبرَازِ ، لِيَمُرَّ مِنْهُمَا البوْلُ والبرَازُ الَّذِى تَجَمَّعَ فى الْجِسمِ ، نَتِيجَةَ أَكْلِ هَذِهِ الثَّمَرَةِ المحرَّمَةِ ، وأحسَّا بأَنَّ هَذِهِ عَوْرَاتٌ يَجِبُ سَتْرُهَا ، فَصَارَا يَأْخُذَانِ مِنْ وَرَقِ شَجَرِ الجَنَّة ، وَيَلْصقانِ الأَوراقَ بَعْضها ببعضٍ . ويستران بها نَفْسَيْهِمَا ..

يَقُولُ تَعالَى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُما الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾[1] ؟ .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٢٢ .

آدَمُ يَسْتغفِرُ ربَّهُ :

وأحَسَّ آدَمُ بخَطَئِه ، وعَلِمَ أنَّ إبْليسَ – لَعَنهُ اللَّهُ – قَدْ خدَعهُ وفَتَنه ، وجَعَلهُ يَعْصِى أمْرَ اللَّهِ الَّذِى نَهاهُ عَنِ الأكْلِ مِنْ هذِهِ الشَّجَرةِ ، فاسْتَحَى مِنَ اللَّه ، ولَمْ يَدرِ ماذَا يقُولُ هُو وزَوجَتهُ حَوَّاء ، ولكنَّ اللَّهَ رَحيمٌ بعَبْده آدَمَ ، يَعْلمُ ما انْطَوتْ عَليهِ نَفسُهُ مِنَ النَّدمِ والأسَفِ والألَم ، ولَيس العَيبُ فى أنْ يُخْطىءَ الإنْسانُ ، ولكِنَّ العَيبَ فى الاسْتِمرارِ فى الخَطإ ، وعَدَم التَّوبةِ والرجوعِ إلَى اللَّهِ .

ويقُولُ تَعالَى :

﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ ربِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إنَّهُ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ ﴾(١) .

وهَذا الدُّعاءُ الَّذِى تَلقَّاهُ آدمُ مِنْ ربِّه هُوَ :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾(٢) .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٣٧ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٣ .

الهبوطُ إلَى الأَرضِ :

تَابَ اللَّهُ عَلَى آدَمَ وحَواءَ ، وغَفَرَ لَهُما هَذا الخَطأَ ، ولكن لَيسَ مِنَ الممْكنِ أنْ يَعيشَا فى الجَنَّة بَعْد هذِه الأَكْلةِ الملعُونَةِ ، فالطَّعامُ فِيهَا يتَحلَّلُ كلُّه دَاخِلَ الأجْسَامِ، ولايَبْقى مِنهُ فَضَلاتٌ .

فَقَال اللَّه لَهُما :

﴿ قُلْنَا : اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1].

هَبطُوا جَمِيعًا إلَى الأرْضِ ، آدمُ وحَواءُ وإبْليسُ ، لِتبْدأَ الحرْبُ بَينَ الخَيْرِ والشَّرِّ ، الخَيرُ مَفْروضٌ أنَّهُ فى آدَمَ وذُرِّيَّتِه ، والشَّرُّ يتَمثَّلُ فى إبْليسَ وذُرِّيَّتِهِ ، ومَنِ اتَّبعَهُ مِنَ البَشَر .

أسْلِحةُ إبْلِيسَ :

قالَ إبْليسُ :

يا رب ! طَرَدْتَنِى مِنْ رَحْمتكَ ! وجَعلْتَنِى شَيْطانًا رَجِيمًا ، وأعْلَنتَ الحربَ بيْنى وبَينَ آدَمَ وذُرِّيَّتِه ، فَمنْ أسْتَطيعُ أنْ أغرَّهُ

(١) سورة البقرة : الآية ٣٨ .

مِنْهُم وأُفْتِنَهُ يَكونُ مَعِى مِنْ أَهْلِ جَهَنَّم ؟ ولكنَّكَ يَا رب سَتُرسِلُ لَهمُ الرُّسلَ ، يُخوِّفُونَهُم مِنِّى ، ويُبْعدونَهُم عَنِّى ، وستَنْزلُ عليهم الكُتب الَّتِى تَهْديهِم إِلَى الصِّراطِ المسْتَقيمِ ، فَمَن هُمْ رُسُلى ؟ ..

فَقَالَ لَهُ : رُسُلُكَ الكَهنَةُ ، والكَهَنةُ هُمُ الدَّجَّالونَ والمشَعْوِذونَ ، الَّذينَ يدَّعُون العِلْمَ بالغَيْبِ ، ويأْكُلونَ أَمْوالَ النَّاسِ بالبَاطِلِ ، هَؤُلاءِ هُمْ رُسُلِ إِبْليسَ الَّذينَ يَضْحكُ بِهِم عَلى النَّاسِ ويُضلُّهمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

فَقالَ إِبْليسُ : فَما مَسْجدِى ؟

فَقالَ اللَّهُ لهُ : مَسْجدُكَ السُّوق، فالسُّوقُ مَلىءٌ باللُّصوصِ ، والَّذِينَ يحْلفُونَ باللَّهِ كَذِبًا .

فَقالَ إِبْليسُ : فَما حَديثِى ؟

قالَ : حَدِيثُكَ الكَذبُ ، فَالكَذبُ مِنَ الشَّيْطانِ .

قالَ إِبْليسُ : فَما طَعَامى ؟

قالَ : طَعامُكَ مَا لَمْ يُذْكَر اسْمِى عَليهِ .. فالطَّعامُ الَّذِى لا نَبدَأُ فيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحيمِ يُشَاركنَا فِيهِ إبْليسُ ، فَيكونُ قَليلَ البَركَةِ .

قالَ : فَمَا شَرَابِى ؟

فقالَ اللَّهُ له : شَرابُكَ كُلُّ مُسْكِرٍ ، ولهذَا يقُولُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : «الخمْر أُمُّ الشُّرورِ» .

وبَدأتِ الحربُ بيْنَنَا وبَيْن إبْليسَ وذُرِّيتِه مُنْذ ذَلك الحِينِ ، هُوَ يُريدُنا أَنْ نَعْصى اللَّهَ ، ولكنَّ اللَّهَ يُعِيننَا عَليهِ ، لأَنَّنا نَسْتعينُ باللَّهِ عَليهِ فنَقُول : نَعُوذُ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجيمِ .

ولِكنَّ إبْليسَ لَمْ ولَنْ يَيأسَ منَ الضَّلالِ أَبدًا ، فَبَدأَ أُولَى مَعْصِياتِهِ الكُبْرى عَلَى الأَرْضِ مَعَ قَابِيلَ وهَابِيلَ أَوْلادِ آدَمَ الِكبارِ .

جَبَلُ عَرَفات :

هَبَطَ آدَمُ وَحوَّاءُ – عَلَيهِمَا السَّلامُ – مِنَ الجَنَّةِ إِلَى الأَرْضِ ، فى مَكانَيْن مُخْتَلِفَيْنِ ، وظَلَّ كُلٌّ مِنْهُما يَبْحثُ عَنْ صَاحِبِهِ ، وفى صَبِيحةِ يَومٍ صَافٍ جَميلٍ ، جَلَستْ حَوَّاءُ فَوقَ صَخْرةٍ

عَالِيةٍ ، قُبَيْل شُرُوقِ الشَّمْسِ ، وقَدِ اتَّجَهتْ بوَجْهِها إلَى الشَّرقِ ، فانْعكسَتْ عَلى جَبِينِهَا خُيوطُ الصُّبحِ البَيْضاءُ ، فكسَتْه إشْراقَةً رائِعَةً ، أكْسَبتهَا جَمالاً وجَلالا ، ثُمَّ مَدَّت بَصَرها إلَى الأُفقِ الشَّرقِيِّ ، وإذَا بِهَا تَلْمحُ مِنْ بَيْن أنْفاسِ الصباح شَبحا ، مُقبلا مِن بَعيدٍ ، إنَّهُ آدَمُ ، يَسيرُ فى عُنْفوانِ الشَّبابِ ، مَفْتولَ الذِّراعَيْنِ ، يَسيرُ فى خُطًى ثَابِتةٍ ، تَبْحثُ عَيْناهُ فى جَنَبات الوَادِى عَنْ حَوَّاء ، والْتَقيَا بَعْدَ فِراقٍ فكَان لِقاءٍ حارًّا .

هَذا المكانُ الَّذِى الْتقيَا فِيهِ ، هُوَ جَبلُ عَرفَات ، لأنَّهُما قَدْ تَعارَفا عليه بَعْد الفِراقِ ، ولهذَا سُمِّى عَرفَات ، وهُوَ المَكانُ الَّذِى يَحجُّ إلَيْهِ المسْلمُونَ إلَى أنْ تَقُومَ السَّاعةُ ، يُلبُّونَ نِداءَ رَبِّهِمِ ، ويَتعَارفُونَ فى أُمورِ دِينِهِمْ ، فَرِيضةً مِنَ اللَّهِ ، ورُكْناً مِنْ أرْكانِ الإسْلام الخَمْسةِ ، وكانَ ذَلكَ اليَوْم هو التَّاسِعَ مِن ذِى الحِجَّةِ .

وفى أوَّلِ لِقاءٍ لَهُما ، رَفَعا أيْدِيَهُما إلَى السَّماءِ وقالاَ :

«لَبَّيكَ اللَّهُمَّ لَبَّيكَ ، لَبَّيكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيكَ ، إنَّ الحمْدَ والنِّعمةَ لَكَ والمُلْكَ ، لا شَرِيكَ لَكَ» .

قَابِيلُ وهَابِيلُ :

كانَتْ حَوَّاء تَلدُ لآدَمَ تَوْءَمًا فى كُلِّ بَطْنٍ غُلامًا وَبِنْتًا ، إلا شِيثًا ، فإنَّهَا وَلدتهُ منْفَردًا .

وَلدَت عِشْرينَ بَطْنا ، أَوَّلهُم (قَابِيلُ) وتَوءمَتهُ (إقْلِيمَا) وآخِرُهُم (المغِيثُ) وتَوْءمتُهُ (أَمةُ المغِيثِ) .

وفى البَطْنِ الثَّانِى بَعْد قَابِيلَ وإقْلِيما ، وَضَعتْ (هَابِيلَ) وتَوْءمَتَه (لبودَا) .

وكانَ الوَلدُ يَتزَوَّجُ أىَّ بِنْتٍ مِنْ إخْوَتِه إلا تَوْءمتَهُ الَّتِى كانَتْ مَعَه فى بَطْنٍ وَاحِدٍ فَإنَّها لا تَحلُّ لَه.

وكانَتْ إقْلِيمَا – تَوْءمةُ قَابِيلَ – جَمِيلةً جدًّا ، مُفْرطةً فى شِدَّةِ جَمالِها ، فأصَرَّ قَابِيلُ عَلَى الزَّواجِ مِنْها ، ولكنَّ أباهُ آدَمَ ، أخْبَره أنَّ إقْلِيمَا تَوْءمتَهُ لا تَحلُّ لَهُ ، وإنَّما لَبودَا – تَوْءمَة أخِيهِ هَابِيل – هِىَ الَّتِى تَحلُّ لَهُ .

فَقالَ قَابِيلُ : لا ، إنَّ لَبودَا دَمِيمةٌ ، أىْ لَيْسَت جَمِيلةً ، وأنَا سَأتزوَّجُ إقْلِيمَا .

فَقالَ لَهُ أَبوهُ : إنَّ هَذا مُخَالفٌ لأَمْرِ اللَّهِ تَعالَى .

فَلَم يُصدِّقْ أَباهُ، وقَالَ لَه: إنَّ اللَّهَ لَمْ يَأمر بِهَذَا يَاأَبِى، ولكنَّكَ تُحبُّ هَابِيلَ أَكْثَر مِنِّى، وتُريدُ أَنْ تَخصَّهُ بإقْليمَا لجَمَالِها.

القُرْبانُ :

فَجَمعَ آدَمُ – عَليهِ السَّلامُ – قَابِيلَ وهَابِيلَ ، وطَلَبَ مِنْ كُل مِنْهُما تَقْدِيم قُربَانٍ إلَى اللَّهِ ، فَالَّذِى يَتقبَّلُ اللَّهُ قُربانَهُ هُوَ الَّذِى يَتزوَّجُ إقْلِيمَا الجَمِيلةَ ، فَرضِيا بهَذَا الأَمْرِ .

والقُرْبانُ هُوَ الصَّدقَةُ الَّتِى يُقدِّمُها الإنْسانُ للتَّقربُّ إلَى اللَّهِ تَعالَى، وأُخِذَت كَلمَةُ القُرْبانِ مِنَ التَّقرُّبِ إلَى اللَّهِ بالعَمَل الصَّالِحِ .

انتقَى هَابِيلُ – وكانَ رَاعيا – كَبْشا سَمِينا مِنْ غَنَمِهِ ، وقدَّمهُ صَدقَةً وقُرْبانا للَّهِ تَعالَى .

أَمَّا قَابِيلُ الفَلاَّح ، فإنَّهُ أَتَى بحُزْمةٍ مِنَ الزَّرْع الرَّدِىءِ ، وقَدَّمهَا للصَّدقَةِ والقُرْبانِ ، فَنَزلَتْ نارٌ مِنَ السَّماءِ ، أَكلَتْ كَبشَ هَابِيلَ ، وتَركَتْ قُربانَ قَابِيلَ[1] وهَذا يَعْنِى أَنَّ

(١) القرطبى وغيره .

اللَّه –تعالَى– تَقبَّلَ قُربانَ هَابِيلَ ، ولَمْ يَتَقبَّل القُربانَ الَّذِى قَدَّمهُ قَابيلُ ، لأَنَّ هَابِيلَ قَدَّم قُرْبانَه مِنْ أَحْسَنِ شَىءٍ عِنْدَه ، أَمَّا قَابِيلُ فَقَدَّمَ القُربانَ مِنْ أَرْدإِ مَا عِنْدَه ، والوَاجِبُ أَنْ يَتصدَّقَ الإِنْسانُ دَائما ، مِنْ أَحْسَنِ شَىءٍ يَمْلِكه ، أَوْ أَفْضَلِ طَعامٍ يأْكُلُه ، لأَنَّ الصَّدقَةَ للَّهِ ، ولا يَصحُّ أَنْ تُقدِّم للَّهِ شَيْئًا رَدِيئًا .

يقُولُ تَعالَى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾(١) .

إِبْليسُ والفِتْنَةُ :

قَالَ هَابِيلُ لأَخِيهِ : ومَا ذَنْبى أَنَا فى هَذَا ؟ إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبلُ القُربانَ والصَّدقَةَ إِلا مِنَ المتَّقينَ ، يقُولُ تَعالَى :

﴿ قَالَ : لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ المتَّقِينَ ﴾ .

فقالَ قَابِيلُ : لابُدَّ أَنْ أَقْتُلكَ يَا هَابِيلُ ، ولَنْ أَتْركَكَ تَتزوَّجُ أُختِى إِقْلِيما .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٢٧ .

فَقالَ هَابِيلُ :

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ﴾(١).

وبَدأَ إِبْلِيسُ يُباشِرُ مُهمَّتَهُ مَعَ أَبْناءِ آدَمَ ، لِيُشْعِلِ الفِتْنَةَ بَيْنَهُمْ .

وهَلْ يَلْزَمُ إِبْليسَ غَيْرُ إِنْسانٍ ضَعيفِ الإِيمانِ لِيسْتَولِيَ عَلَى تَفكِيرِه وعَقْلِه !!

يقُولُ تَعالَى :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾(٢).

وحَلَّت بقَابِيلَ لَحْظَةُ النَّدمِ .. ولكِن بَعْدَ نَجَاحِ إِبْليسَ فى تَنْفيذِ أَوَّلِ جَرِيمَةِ قَتْلٍ فى تَارِيخِ البَشَرِ .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٢٨ .
(٢) سورة المائدة : الآية ٣٠ .

الغُرابُ يُعلِّمُ الإنْسانَ :

ولأوَّل مَرَّةٍ يَرَى قَابِيلُ شَخْصا مَيِّتا ، قالَ : يا هَابِيلُ ، يا هَابِيلُ .. لَقَد صارَ شيئًا لا يَتحرَّكُ ، ، ماذَا أصْنَع فى هذا الجَسَد الهامِدِ ؟

سَارَ قَابِيلُ بجَسدِ أخِيهِ هَابِيلَ ، حتَّى أدْرَكهُ التَّعبُ مِنْ هَذا الحِمْلِ الثَّقيلِ ، فَجلَسَ تَحتَ شَجَرةٍ ليستَرِيحَ ، فَرأَى فَوقَها غُرابَيْن يتَشاجَران ، وقَتَل أحَدُهُما الآخَرَ ، ثُمَّ نَزَلَ الغُرابُ القَاتِلُ ، فَحفَر حُفْرةً ، ثمَّ حمَلَ جُثَّةَ الغُرابِ المقْتولِ ، ووضَعَهُ فى الحفْرةِ وأهَالَ عَليهِ التُّرابَ .

وَهُنَا عَرَفَ قَابِيلُ كَيْفَ يَصْنَعُ بِجَسَدِ أَخِيهِ هَابِيلَ . يَقُولُ تَعَالَى :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابا يَبْحثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيفَ يُوارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة : الآية ٣١ .

فَحَفَرَ قَابِيلُ حُفْرَةً ودَفَنَ جَسَدَ أَخِيهِ فِيهَا ، ثُمَّ أَهَالَ عَلَيْهِ التُّرابَ ، لَقَد خَسِرَ قَابِيلُ خُسْرانا كَبِيراً ، فَهُو أَوَّلُ قَاتلٍ فى بَنِى آدَمَ ، كَمَا أَنَّ هذِهِ هِيَ أَوَّلُ مَعْصيَةٍ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ينْجَحُ فِيهَا إِبْليسُ نَجَاحاً كَبِيراً .

قَابِيلُ يَعْبُدُ النَّار :

وأَخَذَ قَابِيلُ أُخْتَه التَّوْءمَ إِقْليمَا ، بَعْد أَنْ قَتَل أَخَاه ، وذَهَب بِهَا إِلَى جَنُوبِ الجَزِيرةِ العَربيَّةِ ، وقَدْ أَصَابَه الرُّعْبُ والفَزَعُ مِنْ كُلِّ شَىءٍ ، وعَاشَ كالمجنونِ ، فَوسْوَس لَهُ الشَّيْطانُ : أَنَّ النَّارَ أَكَلَتْ قُرْبانَ أَخِيكَ هَابِيلَ ، لأَنَّهُ كَانَ يَعْبدُهَا ، فَأَشْعِلْ لَكَ نَارا تَكُون لَكَ ولذُرِّيَّتكَ مِنْ بَعْدِكَ ، فَأَشْعَلَ نَاراً كَبِيرةً وعَبَدهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ .

فكانَ قَابِيلُ هُوَ أَوَّل مَنْ بَنَى بَيْتَ النَّارِ للعِبَادَةِ ، وصَارَتْ عِبادَةَ المجُوسِ بَعْدَ ذَلكَ ، وظَلَّ الشَّرُّ فى أَبْناءِ قَابِيلَ ، أَخَذُوا آلاتِ اللَّهْو ، مِنْ أَنْواعِ الطُّبُول والمزامِير ، وانْتَشَر فِيهِم شُرْبُ الخَمْرِ ، والزِّنى ، وعبَادَةُ الأَصْنَامِ ، وكانَتْ أَصْنامُهُم فِيمَا بَعْدُ : يَغُوثَ ، ويَعُوقَ ، ونَسْرًا ، وُودًّا .. وسُواعا ، وظَلُّوا

يَعْبدُونَها حَتَّى أَتَاهُمْ نَبىُّ اللَّهِ إدْرِيسُ ، ومِنْ بَعْدِهِ حَفِيدُه نُوحٌ - عَلَيْهِمَا السَّلامُ .

آدمُ مُعَمَّراً :

ومَرضَ آدَمُ - عَليهِ السَّلامُ - قَبْل مَوتِه ، فأَوْصَى بالنُّبوَّةِ مِنْ بَعْدِهِ لابنِه شِيث، الَّذِى وُلدَ مُنْفردا ، لأنَّ شِيثًا هُوَ وَارِثُ النُّبوَّة عَنْ أَبِيهِ آدَم ، حتّى وَرَّثَها إلَى نَبىِّ اللَّه إدْرِيس . ومَاتَ آدَم - عَليهِ السَّلامُ - فى سِنٍّ تسْعمائَةٍ وثَلاثِينَ عَاماً .

ولما جاءَ الطُّوفانُ ، فى أَيَّامِ نُوحٍ - عليه السَّلامُ - حَمَلَ نُوحٌ تَابوتَ جَدِّه آدَم مَعَه فى السَّفِينَةِ ، وبَعْد الطُّوفانِ . قِيلَ : إنَّهُ دَفَنه فى مَكانِ بَيْتِ المقْدِس بفلسْطِينَ[1].

* * *

(١) الثعلبى والكشاف والقرطبى - ٣٧ هود .

من حياة المرسلين

إدريس عليه السلام

يصعد إلى الجنة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَاذْكُرْ فِى الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكانا عَلِيًّا ﴾ .

[سورة مريم آيتا ٥٦ ، ٥٧]

إدْرِيسُ فى بَابلَ :

سَيِّدُنا إدْرِيسُ – عَلَيْهِ السَّلامُ – مِنْ نَسْلِ شِيث بنِ آدَمَ – عَلَيْهِمَا السَّلامُ – اسْمُه فى القُرآنِ الكَرِيم – (إدْرِيس) – واسْمُه فى التَّوراةِ الَّتِى أَنْزلَها اللّهُ – تَعالَى – عَلَى سيِّدِنا مُوسَى للْيَهُود – (أخْنُوخ) – واسْمُه فى التَّارِيخ المِصْرىِّ القَدِيم – (هُرْمُس الهرامِسَة) – وكَلِمةُ – (هُرْمُس) – فى اللُّغَة المِصْرِيَّةِ القَدِيمَة – مَعْناهَا – (الحَكِيم) – فيكون – (هرمس الهرامسة) هُو : حَكِيمُ الحُكَماءِ .

وَسيِّدُنَا إدْرِيسُ ، هُوَ الجَدُّ الثَّانِى لِسَيِّدنَا نُوحٍ – عَلَيْهِ السَّلامُ – لأنَّ نُوحَ بْنَ «لاَوى»، ولاَوى بنُ «مُتُوشَالح»، ومُتُوشَالح ابْنُ سَيِّدِنا إدْرِيس .

* * *

وُلِدَ إدْرِيسُ – عَلَيْهِ السَّلامُ – فى بَابِل ، وأَرْضُ بَابِل هِىَ أَرْضُ العِراقِ الآنَ ، عِنْدَ نَهْرَى دِجْلَة والفُرَات ، وشَبَّ – عَلَيْهِ السَّلامُ – فى بَابِل ، شَدِيدَ الحُبِّ للْعِلْم والحِكْمَة منْذُ طُفُولَتِهِ .

دَرسَ إدْرِيسُ – عَلَيْهِ السَّلامُ – جَمِيعَ العُلُومِ ، بِتَوْفِيقٍ مِنَ اللّهِ تَعالَى –دَرسَ عُلومَ جَدِّهِ شِيثٍ الَّتِى وَرِثهَا عَنْ أبِيهِ آدَمَ – عَلَيْهِ السَّلامُ .

وإدْرِيسُ – عَلَيْهِ السَّلامُ – هُوَ أوَّلُ مَنْ كَتَبَ بالقَلَم ، وأوَّلُ مَنْ خَاطَ الثِّيابَ ولَبسَهَا ، وكانَ النَّاسُ قَبْلَهُ ، يَلْبسُونَ جُلودَ الحيَواناتِ بَدَل الثِّيابِ .

وقَدْ أفَاضَ اللَّهُ عَلَيهِ فى العِلْمِ والمعَرِفَةِ ، وبَرزَ فى عُلُوم الفَلَكِ ، والحِسَابِ ، والهَندسَة ، والطِّبِّ ، وعِلْم الفَضَاء ، والجُغْرافيَا ، والكِيمياء .

* * *

إدْرِيسُ يُهاجرُ إلَى مِصْر :

ظَلَّ إدْرِيسُ – عَلَيهِ السَّلامُ – يَدعُو أهْلَ بَابِلَ «العِرَاق» إلَى عِبادَةِ اللّهِ وَحْدَهُ ، ونَهَى المفْسدِينَ مِنْ بَنِى آدمَ عَنْ مُخَالفةِ شَرِيعَةِ اللّهِ ، شَرِيعَة جَدِّه آدَم ، وجَدِّه شِيثٍ – عَلَيْهما السَّلامُ .

ظَلَّ يأْمُرهُم بالمعْروفِ ، وبصِفاتِ الخَيْرِ : كالصِّدْقِ ، والكَرَم ، والأمَانَةِ ، والشَّجاعَةِ ، والمُروءَةِ ، والوَفَاء .

وكانَ ينهاهُم عنِ المنكر ، وصِفاتِ الشَّرِّ : كالكَذِبِ ، والبُخْلِ ، والخِيانَةِ ، والجُبْنِ ، والغَدْرِ ، فَلَم يَستجِب لَه مِنْهُم إلاَّ القَلِيلُ ، فَعزَم عَلى الهِجْرةِ مِنْ بَابلَ «العِراق» إلَى جِهَةِ الغَرْب ، وأخبَر تَلامِيذَهُ بِمَا عَزَم عَليهِ ، ولكِن عَزَّ عَليْهم رَحِيلُهُ مِنْ بِلادِهِمْ وقالُوا لَهُ : وهَلْ نَجدُ يَا نَبيَّ اللَّهِ فى الأَرضِ بَابلَ أُخْرَى ؟

وكَلمةُ بَابِل فى لُغَتِهِم تَعْنِى «النَّهْر» ، يقْصِدُونَ : وهَلْ نَجدُ نَهْرًا آخرَ مِثْلَ نَهْرَى دِجْلَة والفُراتِ ، إذَا تَركْنَا هذِه الدِّيارَ ؟

فَقالَ لَهُم إدْرِيسُ – عليه السَّلام – : عَسَى إنْ هَاجَرْنا فى سَبيلِ اللّهِ أنْ يَرزُقَنا بِبَابل أُخْرَى ، يَعْنِى بِنَهْرٍ آخرَ .

فأطَاعُوهُ ، وخَرجُوا مَعهُ مُهاجِرِينَ فى سَبِيلِ اللّهِ .

* * *

إدْرِيسُ أوَّلُ مَنْ يَكتَشِفُ وادِى النِّيل :

وبَعدَ أيَّامٍ ، هَداهُمُ اللّهُ – تَعالى – فى سَيْرِهم ، لأنَّ إدْرِيسَ – عَلَيْه السَّلامُ – كانَ مُعْتمِدًا عَلى اللّه فى

سَيْرِه ، لِيهْدِيَهُم إِلَى الصِّراطِ المسْتَقيمِ، فَهُولا يَدْرِى إِلَى أىٍّ مِنْطَقةٍ يَسِيرُ، ولَيس فى ضَمِيرِه جِهةٌ يقْصِدُهَا .

وأَشْرفُوا عَلَى إِقْلِيمِ مِصْرَ ، وَرأَوْا نَهْرَ النِّيلِ العَظِيمِ ، بمَا فِيهِ مِنْ مَاءٍ عَذْبٍ ، وبمَا عَلَى شَاطِئَيْهِ مِنْ زروعٍ وأَشْجارٍ ، وحَدائِقَ وثِمارٍ ، وهُو خَالٍ مِنَ السُّكَّانِ ، لأنَّ – إدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلامُ – أَوَّلُ مَنِ اكْتَشَف وادِى النِّيلِ ، ولَيسَ فِيهِ أَحدٌ مِنْ بَنِى آدَمَ .

فَوقَف إدْرِيسُ – عَليهِ السَّلامُ – عَلَى شَاطىء النِّيلِ ، ورَفَع يَديْهِ إِلَى السَّماءِ ، وسَبَّح للّهِ ، وحَمِدَهُ عَلَى إِكْرامِهِ لَهُم ، وقَالَ لِمَنْ مَعَه : بَابِل يُون – وكَلِمةُ «يُون» فى لُغَتِهِم تَعْنِى أَكْبَر وأَعْظَم ، فكأَنهُ يقُولُ لَهُم : هَذا نَهرٌ أَكْبَرُ وأَعْظَمُ وأَفْضَلُ ، وأَطْلَق إدْرِيس – عَليهِ السَّلامُ – اسْم (بَابِل يُون) عَلَى ذلِكَ المكَان ، وأَصبَح اسْمُه عِنْد جَمِيعِ الأُمم فى ذلِكَ الأَوانِ «إِقْلِيم بَابلْيُون» أىْ إِقْلِيمُ النَّهْرِ العَظِيم .

ولَمْ يُسمَّ باسْمِ – إِقْلِيم مِصْر إلاَّ بَعْد طُوفَانِ نُوحٍ – عَلَيْهِ السَّلامُ – حَيثُ اسْتَوطَنَ فى ذَلِكَ المكانِ مِصْرُ بْنُ حَام بنِ نُوحٍ، فَتْرة مَا بَعْد الطُّوفانِ ، وهِىَ فَتْرة تَبعُد بزَمنٍ كَبِيرٍ عَنْ

عَصْرِ إدْرِيسَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – وكَما ذَكرنَا مِنْ قَبلُ ، أنَّ نُوحاً هُو ابْنُ لاوى بنِ مُتُوشَالِح بنِ إدْرِيس – عَليهِ السَّلامُ – أىْ بَعْد خَمْسةِ أجْيالٍ مُتعاقِبينَ .

* * *

إدْرِيسُ يَدْعو إلى عِبَادَةِ اللَّهِ :

وَأَخذَ إدْرِيسُ – عَليهِ السَّلامُ – يَدْعُو النَّاسَ إلَى عِبادَةِ اللّهِ ، والأمْرِ بالمعْرُوفِ ، والنَّهىِ عَنِ المنْكَر ، وتَخلِيصِ النُّفُوسِ مِنَ العَذابِ فِى الآخِرَةِ بالعَمَلِ الصَّالِحِ فِى الدُّنْيا ، والحُكْم بالعَدْلِ ، وأَمرَهُم بصَلاةٍ ذَكَرها لَهُم ، وأَمرَهُم بصِيامِ أيَّامٍ مَعْروفَةٍ منْ كُلِّ شَهْرٍ ، كَما أَمرَهُم بزَكاةِ الأَمْوالِ يُقدِّمونَها صَدَقَةً للّهِ للْفُقراءِ والضُّعفَاءِ والمساكِينِ ، وشَدَّدَ عَليهِمْ فى الطَّهارَةِ والنَّظافَةِ ، وحرَّم المسَكِرَ مِنْ كلِّ شَىءٍ مِنَ المشْرُوباتِ ، وجَعَل لَهُم أَعْيادًا كَثِيرةً ، فى أَوْقاتٍ مَعْروفَةٍ منَ السَّنَةِ ، تَتعَلَّقُ بسَيْرِ النُّجومِ والكَواكِبِ فى السَّماءِ ، وأنْذَرَ النَّاسَ بطُوفانٍ يَأْتِى مِنْ بَعدِهِ ، يُغْرِقُ الأَرْضَ كُلَّها .

* * *

إدْرِيسُ يُعَلِّمُ النَّاسَ أُصُولَ العُلُومِ وتَخْطِيطَ المدنِ:

عَلَّمهُ اللّهُ – تَعالَى – أُصُولَ العُلُوم كُلِّها ، كَمَا عَلَّمهُ جَمِيعَ لُغاتِ سُكَّان الأَرْضِ فِى هذا الزَّمنِ القَدِيمِ البَعِيدِ ، لِيُخاطِبَ كُلَّ فِرْقةٍ بلُغَتِها ، ورَسَم للنَّاسِ تَخْطِيطَ بِناءِ المدُن ، وأُنْشِئَت فى عَهْدِهِ مُدنٌ كثِيرةٌ ، أَصْغَرُها مَدِينةٌ اسْمُها مَدِينَةُ «الرَّها» وقَسَّمَ إدْرِيسُ – عَلَيهِ السَّلامُ – الأَرْضَ كُلَّها أَربَعَة أَقْسامٍ ، وجَعَل عَلَى كُلِّ قِسْمٍ مِنْهَا مَلِكاً مِنْ تَلامِيذِهِ النَّابِغِينَ ، وَكانَ أَقْربُ تَلامِيذِهِ إلَيهِ اسْمُه «استلبيوس» فَجَعلهُ مَلِكاً عَلى بِلادِ اليُونانِ ، واجْتَمعَ حَوْل إدْرِيسَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – طُلابُ العِلْم مِنْ كُلِّ المدنِ والبِلادِ ، فَعلَّمهُمُ الخَطَّ ، والعُلومَ العَامَّة ، والطِّبَّ ، والخِياطَةَ ، وأَفْهَمهُم عَدَدَ السِّنِينَ والحِسابَ .

إدْرِيسُ يُرفَعُ إلَى السَّماءِ :

يقُولُ اللّهُ – تَعالَى – فى القُرآنِ الكَرِيمِ عَنْ نَبِيِّهِ إدْرِيسَ :

﴿وَاذْكُرْ فِى الكِتَابِ إدْرِيسَ إنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾(١) .

---

(١) سورة مريم آيتا ٥٦ ، ٥٧ .

وقالَ رِجالُ التَّفسيرِ في شَرحِ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ، ومِنْهُم الحَسَنُ ابنُ الإمامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالبٍ – رَضِيَ اللّهُ عَنْهُما – قَالُوا :

إنَّ اللّهَ – سبْحانَهُ وتَعَالى – رَفَعهُ إلَى الجَنَّةِ ، لأَنَّ اللّه قالَ : ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1] ولا يُوجَدُ مَكانٌ أَعْلَى مِنَ الجَنَّةِ ، فَرفَعَه اللّهُ إلَى الجَنَّة[2].

* * *

اتَّفَق رِجالُ الدِّينِ ، ورِجالُ العِلْم ، ورجالُ التَّارِيخ ، ورِجَالُ الآثَارِ ، اتَّفقُوا جَمِيعُهُم عَلَى أَنَّ اللّهَ تَعالَى، رفَعَ نَبيَّه إدْرِيسَ – عَليهِ السَّلامُ – بجِسْمِه إلَى السمَّاء ، حَتَّى التَّورَاة الَّتِي أَنزلَها اللّهُ – تَعالَى – عَلَى سَيِّدنا مُوسَى – عَليه السَّلامُ – للْيَهودِ قبل سَيِّدنا مُحمَّدٍ – صَلَّى اللّه عَليهِ وسَلَّم – وقَبْل نُزُولِ القُرآنِ الكَرِيمِ .

تَقولُ التَّوراةُ :

«سَارَ أَخْنوخ مَعَ اللَّهِ ولَمْ يَعُد ، لأَنَّ اللّهَ أَخذَه»[3] وأَخْنوخُ

---

(١) سورة مريم : الآية ٥٧ .

(٢) جميع كتب التفسير .

(٣) سفر التكوين – الأصحاح الخامس – فقرة ٣٤ .

هُوَ سَيِّدنا إدْرِيس كَما ذَكرْنا مِنْ قَبلُ ، فَكيفَ رُفِعَ إدْرِيسُ إلَى السَّماءِ ؟ .

كَيفَ رُفعَ إدْرِيسُ -عَليهِ السَّلامُ- إلَى السَّماءِ ؟

ذَكَرتْ لَنا كُتُب التَّفسيرِ - للْقُرآنِ الكَريمِ - قِصَّةً لَطِيفةً جدًّا ، عَنِ الطَّريقَةِ الَّتِى رَفَعَ اللّهُ بهَا نَبيَّه إدْرِيسَ - عَلَيْهِ السَّلامُ- إلَى السَّماءِ ، واللّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِير ، فقَالُوا : كَانَ يُرفَعُ لإدْرِيسٍ - عَليهِ السَّلامُ - كُلِ يَومٍ مِنَ العِبادَةِ والعَملِ الصَّالِحِ قَدْرَ ما يُرفَع لِجَميعِ أهْلِ الأَرْضِ فِى زَمانِه ، يقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضىَ اللّهُ عَنهُ - وهُوَ مِنْ كِبَارِ المفسِّرينَ للقُرآنِ الكرِيمِ ، قَالَ :

كَانَ إدْرِيسُ - عَلَيْهِ السَّلامُ - خَيَّاطًا ، وكَانَ لا يَغْرزُ إبْرةً فى الثِّيابِ إلاَّ وَهُو يَقُول : «سُبْحانَ اللّهِ» فكانَ يَأْتى عَليهِ المساءُ ، ولَيسَ فى الأَرْضِ كُلِّها أَحَدٌ أفْضَل مِنه عَمَلاً ، وأكْثَر مِنْهُ عِبادَةً وتَسْبِيحًا ، فأَحبَّتْهُ الملائِكةُ .

فاشْتاقَ سَيِّدُنا عَزْرائيلُ لِرؤْيَتِهِ ، وعزْرائِيلُ هُوَ ملكُ الموتِ ، فَاسْتأذَنَ عزْرائِيلُ - عَليهِ السَّلامُ - مِنَ اللّهِ - تَعالَى - لِيسْمحَ

لَه بزِيَارةِ سَيِّدِنا إدْرِيس لِيرَاهُ ، فأَذِنَ اللّهُ – تعَالَى – لعَزْرائِيلَ بِتلكَ الزِيارَةِ .

فَنزلَ عَزْرائيلُ ، فى صُورةِ رَجلٍ مِنْ بَنى آدَمَ ، وذَهَبَ إلى إدْرِيسَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – فى محلِّ إقَامَتِهِ ، وَبقىَ ضيفًا عنْدهُ ثَلاثَةَ أيَّامٍ ، لَم يَسْألهُ فِيهَا سَيِّدنا إدْرِيسُ عَن شَىءٍ .

وفى اليَومِ الرَّابعِ قالَ إدْريسُ لعزْرائِيلَ – علَيْهِما السَّلامُ – مَنْ أنْتَ ؟ وماذَا تُريدُ ؟ لَقَد بَقِيتَ ضَيْفاً عِنْدِى ثَلاثَةَ أيَّام ، لَمْ تأكُل فِيهَا ولَمْ تَشْربْ !!.

فَقالَ لهُ : أنَا عَزْرائيلُ مَلَكُ الموت ، اسْتَأذنْتُ رَبِّى أنْ أزورَكَ فأَذِنَ لِى ، وأنْتَ تَعْلَم يا نَبىَّ اللّهِ ، أنَّنَا نَحنُ الملائِكَة لا نَأكُلُ ولا نَشْربُ .

فَقالَ لهُ إدْرِيس : واللّهِ يَا أخِى يا عَزْرائِيلُ ، إنَّها لَفرصَةٌ طَيِّبةٌ أنْ تَزُورنِى ، فَلِى طَلَبٌ عِنْدكَ .

فَقالَ عَزْرائيلُ : ماذَا تُرِيدُ يَا نَبىَّ اللّهِ ؟ .

قالَ : أُريدُ أنْ تَقْبضَ رُوحِى سَاعةً واحِدَةً ، ثُمَّ تَردَّهَا عَلىَّ لأَذُوقَ أَلَم المَوْت ، فَيصير الموتُ سَهْلا عَلىَّ بَعدَ ذَلكَ .

فَاسْتأذَنَ عَزرائِيلُ مِنَ اللّهِ لِيقْبضَ رُوحَ إدْرِيسَ لِمدَّة سَاعةٍ ، وَيردَّهَا عَليهِ ، فَأذِنَ اللّهُ لعزْرائِيل بِذَلكَ .

فَقَبضَ رُوحَ إدْرِيسَ سَاعة ، ثمَّ رَدَّها عَليهِ .

فلمَّا أفَاقَ إدْريسُ – عَليهِ السَّلامُ – مِنَ الموتِ ، قالَ لعزْرائِيلَ : لِى طَلبٌ ثَانٍ . فَقالَ لهُ عزْرائِيلُ : ماذَا تُريدُ ؟

قالَ إدريسُ : أُرِيدُ أَنْ أَرَى النَّارَ لأَزدادَ خَوفًا ورَهْبةً مِنَ اللّهِ ، فاسْتأْذَن عزْرَائِيل منَ اللّهِ – تَعالى – أَنْ يَسمَحَ لَه بإدْخَال إدْرِيس إلَى النَّارِ ، ثُمَّ يخْرِجهُ مِنْها ، فأَذِنَ اللّهُ لعزْرائِيلَ بذَلكَ ، فأَدْخَلهُ النَّارَ لِيرَاهَا – ثمَّ أَخْرجَهُ مِنْها .

إدْرِيسُ – النَّبىُّ – فى الجَنَّةِ :

فَلمَّا خَرجَ إدْرِيسُ مِنَ النَّارِ ، قالَ لعزْرائِيلَ : لَمْ يَبقَ لِى غَيْرُ مَطْلبٍ وَاحدٍ . قَالَ عزْرائِيلُ : فَما هُو ؟ .

قالَ : أُرِيدُ أَنْ أَدْخُلَ الجَنَّة لأَراهَا ، فأَزدَادَ لها حُبًّا وشَوقًا ، ورَغْبةً وحَنِينًا إلَى اللّهِ .

فَاسْتأذَنَ عَزْرائِيلُ مِنَ اللّهِ – تَعالَى – ليسمحَ لَهُ بإدْخالِ إدْريسَ إلَى الجَنَّةِ ، فأذنَ اللّهُ – تَعالَى – لعزْرائِيلَ بذَلكَ ، فأدْخَلَهُ الجَنَّة ، ثُمَّ قالَ لَهُ : اخْرُجْ مِنَ الجَنَّةِ لأُعِيدَكَ إلَى الأَرْضِ .

فتَعلَّق إدْريسُ – عَليهِ السَّلامُ – بشَجرَةٍ منْ أشْجَار الجَنَّة ، وقالَ لعزْرائِيل : يا عَزْرائيلُ أنَا قَرأْتُ فى الأسْفارِ الَّتى أنزلَها اللّه – تَعالَى – عَلىَّ ، وعَلَى جَدِّى آدَمَ ، وعَلَى جَدِّى شِيثٍ مِنْ قَبْلُ .

والأسفار : هِىَ الكُتبُ الَّتى أنزلَها اللّهُ عَلى بَعْض أنْبيائِه – قَرأتُ فِيهَا : أنَّ كُل بَنِى آدَم ، لابدَّ أنْ يَذُوقُوا الموتَ ، وأنَا قَدْ ذُقْتُ الموتَ ، وَقرأتُ فِيها أيْضاً : أنَّ كُلَّ بَنِى آدَمَ لابدَّ أنْ يَرِدُوا النَّارَ ، وأنَا قَدَ وَردْتُها ودَخلْتُها . كَما قَرأْتُ فى الأَسْفارِ كَذلكَ أنَّ مَنْ دَخَل الجَنَّةَ لَنْ يَخْرجَ مِنْها أبَداً ، فأنَا لَسْت بخَارجٍ مِنَ الجَنَّةِ .

وظلَّ عزْرائِيلُ يطْلُب مِنْ إدْرِيس أنْ يَخْرجَ مَعهُ مِنَ الجَنَّةِ لِيُعيدَهُ إلَى الأرْضِ ، وإدْرِيسُ يمتَنعُ عَنِ الخُروجِ ، حَتَّى أوْحَى اللّهُ تَعالَى إلَى عَزْرائيلَ :

«اتْرُكهُ يا عزْرائِيلُ ، فَبإذْنِى فَعَل ما فَعَل ، وبإذْنِى دَخَل ما دَخَل ، وبإذْنِى لا يَخْرجُ مِنَ الجنَّةِ» .

إدْرِيسُ فى سَفِينَةِ الفَضاءِ :

يقُولُ الكَاتبُ الكَبِيرُ أَنِيس مَنْصُور فى كِتَابِهِ (الَّذِينَ عَادُوا إِلَىٰ السَّماءِ) : لَمْ يَكنْ أَحَدٌ يعْلمُ أَنَّ لنَبىٍّ اللّه – إدْرِيسَ – أَسْرارًا وأَسْفارًا .. – يَعْنى كُتباً مِنَ السَّماءِ – إلا فى عَام ١٧٧٦ عِندَما عَثَر بَحَّارٌ اسْكتْلندى ، اسْمهُ «بروس» علَى نُسْخةٍ لأَسْفارِ النَّبِى أَخْنُوخ ، وأَخْنُوخُ هُو إدْريس ، وجَدَها البَحَّارُ فى بِلادِ الحَبشَةِ ، وبَعْد ذَلِكَ بمائَةِ سَنةٍ ، عَثرُوا عَلَى نُسخةٍ أُخْرَى مِنْ أَسْفارِ إدْرِيسَ فى يُوغُوسلافْيَا ، وهذهِ الآثارُ محفوظةٌ فى مُتْحفٍ ببلادِ اليُونانِ .

ثُمَّ يقُولُ مُؤلِّف الكِتَاب :

وهذِهِ الأَسْفارُ تَتحدَّثُ عَنِ الجَنَّةِ وعَن النَّار ، وعَنْ يَومِ القِيامَةِ ، وعَنِ الطُّوفانِ الَّذِى سَوفَ يُغْرقُ العَالَم كُلَّه ، كَما تَتحدَّث تِلكَ الأَسْفارُ عَنْ رِحْلةِ سَيِّدِنا إدْرِيسَ إِلَى السَّماءِ ، فَوصَف الكَواكِبَ ودَورَانَ الشَّمْسِ والقَمَرِ والأَرْض .

وفيهَا يقُولُ إدْرِيسُ : وأدْخلُونى فى السَّماءِ ، مِنْ حَائطٍ شَفَّافٍ ، مُحاطٍ بالنَّارِ والشرارِ ، ودَخَلْت هَذا الجِسْمَ الهائِلَ اللامعَ الَّذِى ارْتَفع بِى .

ونَحْنُ .. مَازِلْنا مَعَ مُؤلِّفِ كِتَاب «الَّذِينَ عَادُوا إلَى السَّماء» يَحْكى لَنَا .. مَاوَرَدَ فى أسْفَار إدْريس. . فيَقُولُ :

وفى هذِهِ الأَسْفارِ ، وَصْفٌ غَرِيبٌ وعَجِيبٌ ، لِلسَّفِينَةِ الَّتى نَقلتْهُ مَرَّةً أُخْرى إلَى السَّماءِ ، ثُمَّ قالَ : لَمْ يَمتْ إدْرِيسُ ، إنَّما صَعِدَ إلىَ السَّماءِ بجِسْمه، ولَم يَعُد . وقَبْل أنْ يختْفىَ إدْرِيسُ فى السَّماءِ ، نَصَح ابْنَه متُوشَالح قائلاً : وهكَذا أَرْوى لَكَ يَا ولَدِى كُلَّ أسْرارِ الدُّنْيا فى هذِهِ الأَسْفَار ، وقَدْ كَشَفْتُ لك عَنْ كُلِّ شَىءٍ.. فاحْفَظْها عَنِّى، وأعْطِها لأولادِكَ مِنْ بَعْدكَ .

ويُقالُ : إنَّ نُوحاً – عَلَيْهِ السَّلامُ – وهُوَ ابْنُ ابْنِ مُتُوشَالح ، قَدْ حَمَل مَعهُ فى السَّفِينةِ أَسْفَارَ جَدِّهِ إدْرِيسَ مَعَ تَابُوتِ جَدِّه الأكْبَر آدَم ، عِنْدمَا جَاءَ الطُّوفانُ .

إدْرِيسُ يُبشِّر بمُحَمَّدٍ :

وَعَدَ إدْرِيسُ – عَليهِ السَّلامُ – أَهْلَ زَمانِهِ ، بِأَنْبِياءَ يأْتُونَ مِنْ بَعْدِهِ ، وعَرَّفَهُم صِفَةَ نَبِيِّنا مُحمَّدٍ – عَليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ – خَاتَم الرُّسُل ، فقَالَ عنْهُ :

يَكونُ خَالِيًا مِنْ كُلِّ العُيوبِ ، كامِلاً فِي الفَضائِل ، لا يَعجزُ عَنْ سُؤالٍ يُسْأَلُ عَنْه ، مِمَّا فى الأَرْضِ أَوِ السَّماءِ ، ومِمَّا فِيهِ دَواءٌ وشِفاءٌ مِنْ جَميعِ الآلامِ ، وأَنْ يَكونَ مُسْتجَابَ الدَّعْوةِ فى كُلِّ مَا يَطلُبُهُ ، وأَنْ تكونَ دَعْوتُه فى أَخِرِ الزَّمانِ ، هِيَ الدَّعْوة الَّتى يصْلحُ بِهَا العَالَم .

* * *

مِنْ حِكَم إدْرِيسَ – عَليهِ السَّلامُ :

لمَّا كانَ إدْرِيسُ حَكِيمَ الحُكَماءِ ، ونَبيًّا لَه أَسْرارٌ وأَسْفارٌ ، وعَالِمًا مُتَميزًا فى الحِسابِ والهنْدسَة ، والطِّبِّ والكِيمياءِ ، وكَذا الفَلك وسائر العُلُوم ..

فَقَدْ تَركَ فى الأَسْفَارِ والكُتُبِ ذَخِيرةً لا تَنْتَهى مِنَ الحِكَمِ الغَالِيَةِ ، والمَواعِظِ العَظِيمَة ، والآدَابِ العالِيةِ مِنْها :

«الصَّبرُ مَعَ الإيمانِ باللّهِ ، يُورثُ النَّصْر» .

وكانَ ذَلكَ مَكْتوباً عَلى فَصٍّ خاتَم يَلبسُه إدْرِيسُ !!

وقَالَ : «إذَا دَعوتُم اللَّهَ ، فأَخْلِصُوا النِّيَّةَ» .

وقَالَ : «لا تَحْلِفُوا كَاذِبينَ ، ولا تُحلِّفُوا الكَاذِبينَ ، فَتُشارِكُوهُم فى الذَّنْبِ» .

وقال : «تَجنَّبُوا المكاسِبَ الدَّنِيئةَ» يَعْنِى الكَسْبَ الحَرَام .

وقَالَ : « أَطِيعُوا مُلُوككُم .. واخضَعُوا لأئمتِكُم .. واملَئُوا أفْواهَكُم بحَمْدِ اللَّهِ» .

وقالَ : «حَياةُ النَّفْسِ الحِكْمةُ» .

وقالَ : « لا تَحْسدُوا النَّاسَ عَلى كَثْرةِ الأمْوال ، فاسْتِمتاعُهُم بِهَا قَليلٌ » .

* * *

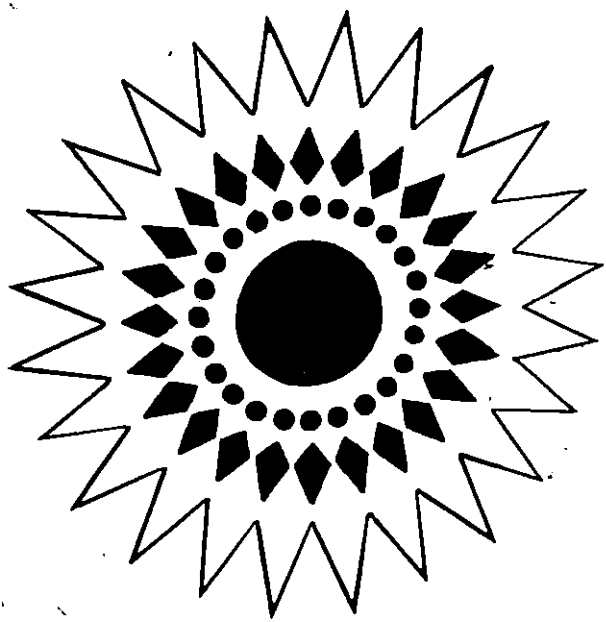

من حياة المرسلين

نوح عليه السلام

يحمل العالم في سفينة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾

[سورة هود الآية ٣٨]

مَنْ هُوَ نُوحٌ :

سَيِّدنَا نُوح بْنُ لاوَى ، وَلاوَى بْنُ مُتُوشَالح ، ومُتُوشَالح بْنُ سَيِّدنا إدْرِيس ، فَيَكونُ سَيِّدُنا إدْرِيس ، هُوَ جَدَّ وَالدِ نُـوحٍ .

ونُوحٌ – عَليهِ السَّلامُ – مِنْ أُولِى العَزْمِ مِنْ رُسُلِ اللّهِ ، أىْ مِنْ أصْحابِ القُوَّةِ الَّذِين أُوذُوا مِنْ قَومِهِمْ وصَبَرُوا عَلَى الإيذَاءِ ، فَرسُلُ اللّه الذِينَ أَخْبَرنا اللّهُ – تَعالَى – عَنْهُم فى القُـرآنِ الكَرِيمِ خَمْسةٌ وعِشْرونَ رَسُولاً ، مِنْهُم خَمْسةٌ سَمَّاهُمُ اللّهُ – تعَالَى – : أُولى العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وهُمْ عَلَى حَسَبِ التَّرتِيبِ التَّارِيخىِّ :

نُوحٌ ، وإبْراهيمُ ، ومُوسَى ، وعِيسَى ، آخِرُهُم نَبِيُّنا مُحمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ وسَلَّم عَليهِم جَمِيعًا .

* * *

وقَدْ نَالَ نُوحٌ – عَليهِ السَّلامُ – هذِه الدَّرجَةَ عِنْدَ اللّهِ – عَزَّ وجَلَّ – لأَنَّهُ بَقِىَ يَدْعُو قَومَه إِلَى عِبادَةِ اللّهِ وحْدَه حَتى بَلَغ منَ العُمر تسْعمائَة وخَمْسِينَ عامًا .

يقَولُ تَعالَى – عَنْ سَيِّدِنا نُوحٍ :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِم أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾[١].

ولَبثَ : يَعْنِى اسْتَمرَّ يدْعُوهُم ، وكانَتْ أَعْمالُ النَّاسِ ، فى هَذا الزمنِ البَعِيدِ .. البعَيدِ ، تَمتدُّ إِلَى مِئاتِ السِّنِينَ . ومَعَ هَذا العُمْرِ الطَّوِيلِ ، الَّذِى قَضاهُ نُوحٌ – عَلَيهِ السَّلامُ – وهُوَ يدْعُو قَومَه إِلَى اللّهِ ، لَمْ يُؤْمنْ بهِ إِلاَّ عَددٌ قَلِيلٌ ، مِنْ ضِعافِ النَّاسِ وفُقَرائِهِم .

كانَ سَيِّدُنا نُوحٌ يَقُولُ لَهُم :

﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾[٢] .

فيقُول النَّاسُ لَهُ :

﴿ مَانَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَانَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنَا ﴾[٣].

والأَرَاذِلُ : يَعْنِى الفُقَراء والضُّعَفاء .

---

(١) سورة العنكبوت : الآية ١٤ .
(٢) سورة هود : آيتا ٢٥ ، ٢٦ .
(٣) سورة هود : الآية ٢٧ .

صَبْرُ نُوحٍ مَع قَومِهِ :

ظَلَّ نُوحٌ – عَليهِ السَّلامُ – يَأْمُرهُم بالمعْروفِ ، وينْهَاهُم عَنِ المُنْكَر ، يَأْمرهُم بالكَرَم ، والصِّدقِ ، والوَفاءِ ، وَالمُرُوءَةِ ، والنبلِ ، والشَّجاعَةِ ، والالْتِزامِ والوَعْدِ والعَهْد .

وينْهَاهُمْ عَنِ الزِّنى ، وشُرْبِ الخَمرِ ، والكذِبِ ، ونَقْض العَهْدِ ، والبُخْلِ ، والأَنانِية ، يَعْنِى تَفْضِيل النَّفْس عَلَى الغَيْر ، والسُّجُود لِغَيرِ اللّهِ – تَعالَى .

ظَلَّ يُخوفُهُم مِنْ عَذابِ اللّهِ وبَطْشِهِ ، وقُوَّته وجَبرُوتِه ، ويُذَكِّرهُم بيومِ القِيامَةِ ، يَومِ الحِسَاب ، يَوم لا ينْفَع الإنْسانَ غَيرُ عَملِهِ .

بَذلَ مَعهم فَوقَ ما يَسْتَطِيعُ أىُّ إنْسانٍ مِنْ جَهدٍ ، وعَناءٍ ، وكِفاحٍ ، يدْعُوهُم لَيلاً ونَهارًا ، سِرًا وجهارًا ، فَلم يَزْددِ القَومُ إلاَّ اسْتِهزاءً بهِ ، وسُخْريةً مِنهُ .

* * *

وقَدْ صَورَ القُرآنُ الكَرِيمُ لَنَا مَوقِفًا مِنْ مَوَاقِفِ سيِّدِنا نُوحٍ مَعَ قَومهِ ، يقُولُ القُرْآنُ عَلَى لسَانِ نُوحٍ :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾[١].

فقَال لهُ أَحَدهُمْ : وماذَا يُعْطِينا رَبُّكَ لَوِ اسْتَغفرناهُ ؟

قالَ لَه : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدرارًا ﴾[٢].

يَعْنِى يُنزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّماءِ مَطرًا غَزِيرًا ، تَشْربونَ مِنْه ، وتَسْقونَ أَنْعَامَكُم ، وتَرْوُونَ زُرُوعكُم .

فَقَال لهُ شَخْصٌ ثانٍ : ومَاذا يُعْطِينا غَيْر المَطَر ؟

قالَ : ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بأَمْوالٍ ﴾[٣].

فَقالَ رجُلٌ ثَالِثٌ : ماذَا أَيْضا ؟

قالَ لَهُ نُوحٌ : ﴿ وَبَنِينَ ﴾.

فَقالَ آخَر : وماذَا غَيْر الأَمْوالِ والبَنِين ؟

قالَ نُوحٌ : ﴿ ويَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ ﴾.

وَقالَ رجُلٌ غَيْرهُ : ثُمَّ ماذَا يُعْطِينا يا نُوحُ غَيْر هَذَا كلّه ؟

---

(١) سورة نوح : الآية ١٠ .
(٢) سورة نوح : الآية ١١ .
(٣) سورة نوح : الآية ١٢ .

قالَ نُوحٌ : ﴿ ويَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾[١].

فَخَرجَ لَهُ أحدُ سُفَهائِهِم سَاخرًا ، مُسْتَهزئًا مِنه ومِنَ اللّهِ ، فغَضِبَ نُوحٌ – عَليهِ السَّلامُ – وقالَ :

﴿ مَالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾[٢].

يعْنِى لماذا لا تَحْتَرمُون كَلامَ اللّهِ ولا تُوقِّرونَهُ ؟! .

* * *

وكُلَّما مَرَّتِ الأيَّامُ ، وَولَّتِ السنونَ ، اشْتَدَّ أَذَى القَومِ لنُوحٍ ، وتَسلَّطَ سُفَهاؤُهُمْ وأَوْلاَدُهُم عَليه ، حتَّى أَطْلقُوا عَليهِ اسْمَ المجْنُون .

يقُولُ تَعالَى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وازْدُجِرَ ﴾[٣].

ازْدُجرَ: يَعْنِى عُذِّب وَأُوذِى، زَجَروهُ كَثِيرًا ، وأَهَانُوه كَثيرًا ، وهو صَابرٌ لقضَاءِ اللّهِ، مُتَحمِّلٌ كُلّ هَذَا فى سَبِيلِ الدَّعْوةِ للّهِ.

---

(١) سورة نوح : الآية ١٢ .
(٢) سورة نوح : الآية ١٣ .
(٣) سورة القمر : الآية ٩ .

يَقُولُ المفسِّرونَ : إنَّ قَومَ نُوحٍ – عَليهِ السَّلامُ – كَانُوا يضْرِبونَهُ ، ثُمَّ يَلفُّونَه فى ثَوْبٍ ، ويُلْقونَه فِى بَيْتِه ، وهُمْ يَظنُّونَ أَنهُ قَدْ مَاتَ ، ثُمَّ يخرجُ فى الْيَوْمِ التَّالِى ، يدْعُوهُم إِلَى اللّهِ .

كانُوا يخْنُقونَهُ ، ثمَّ يتْرُكونَهُ مَغْشِيًّا عَليه ، ويضْرِبُونهُ فى مَجَالسِهِم ، ويَطْرُدُونهُ مِنْها ، وكانَ يُنْذِرهُم بطُوفَانٍ يُغْرِقُهم جَميعًا ، إذَا لَم يُؤْمنُوا .

الزَّوجَة والوَلدُ يَكفُرانِ :

جَاءتْ زَوجةُ نُوحٍ – عَليهِ السَّلامُ – يَومًا تُؤنِّبهُ وتُوبخُهُ ، وتقُولُ لهُ : يا نُوحُ ، أمَا كَفاكَ هذَا الزَّمَنُ الطَّوِيلُ ، وأنْتَ تَقولُ هَذَا الكَلامَ الفَارِغَ ، الَّذِى تَدَّعيهِ ، وذلِكَ الوَهْمَ الكَاذِبَ ، الَّذِى تَعيشُ فيهِ ؟ .

لَقَد أنْذَرتَ قَومَكَ بِطُوفانٍ مِنَ الماءِ يُهْلكهُمْ ويُغْرِقهُم، إنْ لَمْ يؤْمِنُوا باللّهِ ، وقَدْ مَرَّتْ مِئاتُ السِّنِينَ ، ولَمْ يؤْمِنُوا ، أوْ يَمْتَنعُوا عَن الاعتدَاءِ عَليكَ ، ولَمْ ينزِلْ بِهِمُ الطُّوفانُ الَّذِى تَعِدهُم بِهِ .

أَمَا يَكْفِى مايَجْرِى لنَا يانُوحُ ، مِنْ سُخْرِيةِ النَّاسِ واسْتِهزائِهِم ؟ أَمَا تَسْتَحِى مِنْ سَيْرِ الغِلْمانِ خَلْفكَ فى كُلِّ مَكانٍ وهُمْ يقُولُونَ : المجْنُون المجْنُون ؟ ! .

قُلْ لِى يا نُوحُ : مَتَى يَأْتِى الطُّوفانُ الذِى يُغْرِقُ النَّاسَ ؟.

فَقالَ لَها : عِنْدَما يَفورُ التَّنُّورُ .

والتَّنورُ : يَعْنِى الفُرْن الَّذِى نَصْنعُ فِيهِ الخُبزَ ، ويفُورُ : يَعْنِى يَخُرج مِنهُ الماءُ يغْلِى .

فقالَتْ زَوجَتُه : واللّهِ إنَّكَ لَمجْنونٌ حقًّا ، هَلْ يَخْرُج الماءُ مِنْ بيَنِ لَهبِ النَّار فى التَّنورِ ؟! إنَّك مَجْنُونٌ ، وخَرجَتْ إلَى الشَّارِعِ تقُولُ للنَّاسِ : واللّهِ إنَّ نُوحًا لَمجْنُونٌ ، إنَّه يقُولُ : يَأْتِى الطُّوفانُ ، عِنْدمَا يَخْرجُ الماءُ يَغْلِى مِنَ التَّنورِ .

لَمْ تكُنْ زَوْجَةُ نُوحٍ كَافِرَةً فِى أَوَّلِ الأَمْرِ ، إنَّمَا طُولُ الزَّمَنِ ، وَمُرُورُ القرونِ وَالأَجْيَالِ جَعَلَ الْيَأْسَ يَدِبُّ إلَى صدْرِهَا — وَاسْتَطَاعَ الشَّيْطَانُ أَنْ يَصِلَ إلَى قَلْبِهَا .. فَسَلَّطَتْ لِسَانَهَا عَلَى نُوحٍ — عَلَيْهِ السَّلاَمُ — باللَّوْمِ والتَّأْنِيب وَالسُّخْرِيَةِ ، وَتَبعَهَا فِى

كُفْرِهَا ابْنُهَا كَنْعَان – الابْنُ المدَلَّلُ – وَلَمْ يَبْقَ مُؤْمِنًا مَعَ نُوحٍ فِى بَيْتِهِ غَيْرُ أَبْنَائِهِ الثَّلاثَة : سَامٍ .. وَحَامٍ..وَيَافِثٍ .. وَزَوْجَاتِهِمْ .

* * *

نُوحٌ يَدْعُو اللّهَ :

وضَاقَ صَدْرُ نُوحٍ ، وفَرغَ صَبْرُهُ ، فَفِى الشَّارِعِ يَقفُ لَه السُّفهاءُ والغِلْمانُ وَيَنالُونَهُ بالأَذَى والضَّربِ والسُّخريةِ ، وفى المنْزلِ تَلقَاهُ زَوْجَتُهُ بلِسانِهَا السَّلِيطِ ، تُوبِّخهُ وتُؤنِّبهُ ، فَلا يَمْلِكُ إلاَّ التَّطلُّع إلَى السَّماءِ ، وهُوَ يقُولُ : يَاربُّ ﴿ أَنِّى مَغلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴾(١) .

كانَ الرَّجُلُ مِنْ قَومِهِ يَأتِى إلَى نُوحٍ – عَلَيْهِ السَّلامُ – ومَعهُ ابْنُه الصَّغِيرُ ، فَيقُولُ لابْنِهِ : احْتَرسْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ ، حَتَّى لا يُضِلكَ ، فإذَا مَاتَ الأبُ ، شَبَّ ابنُهُ عَلَى كُرهِ نُوحٍ .

وجَاء رجُلٌ إلَى نُوحٍ – عَليهِ السَّلامُ – والرَّجُلُ يَحْمِلُ ابْنَه عَلى كَتِفهِ ، وهو يَتَّكِىءُ عَلَى عَصاً ، ثمَّ قالَ لابْنِهِ : يَابُنَىَّ ، انْظُرْ هَذَا الشَّيْخَ المجنُونَ ، واحْترسْ مِنهُ ، حَتَّى لا يُضلَّك ،

(١) سورة القمر : الآية ١٠ .

فقَالَ الوَلدُ لأَبِيهِ : يَاأَبَتِ أَعْطِنِي العَصَا ، ثم قالَ : أَنْزِلنِي عَلَى الأَرضِ ، فأَنْزَلَهُ ، ثُمَّ مَشَى الوَلَدُ إِلَى نُوحٍ – عَليهِ السَّلامُ – بالعَصَا ، فَضَربه بهَا ، فَشجَّ رَأْسَهُ ، وسَالتْ مِنْه الدِّماءُ ، فَنظَر نُوحٌ إِلَى السَّماءِ ، والدِّماءُ تَسِيلُ علَى جَبِينِهِ وقالَ :

يا رَبِّ .. أَنْتَ تَرَى ما يفْعَلُ النَّاسُ بِي ، فإِنْ كُنْتَ تَعلمُ فِيهِم خَيرًا فاهْدِهِم وإِنْ كانَ غَيْر ذلكَ ، فَصبِّرنِي إِلَى أَنْ تَحْكُمَ ، وأَنْتَ خَيرُ الحَاكِمِينَ ، فأَوْحَى اللّهُ تَعالَى إِلَيْه :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحُ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بمَا كَانُوا يفعَلُونَ ﴾[1].

يَعْنِي : لا تَحزَنْ يَا نوحُ مِمَّا يفْعَلُونَ ، فإِنَّه لَنْ يُؤْمِنَ أَحَدٌ مِنْهُم بَعْدَ ذلكَ .

سَفِينَةُ نُوحٍ :

ولما بَلغَ الشَّرُّ نِهايتَهُ ، بدَأَتْ عَلاماتُ الخَيْرِ تَظْهَرُ ، لأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا ، ومَعَ اليأْسِ فَرَجاً .

---

(١) سورة هود : الآية ٣٦ .

وقَدْ أخبرَ اللّهُ تَعالَى نُوحًا – عَليهِ السَّلامُ –بأَنَّهُ لَنْ يُؤمن أَحَدٌ مِنْ قَومه بَعْد ذلكَ ، فأدْركَ أنَّ مُهمَّتهُ قَدِ انْتهتْ ، فَقالَ :

﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾[1].

طَلبَ مِنَ اللّهِ أنْ يُهْلِكَ جَميعَ الكافِرينَ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ ، ولا يترْكَ مِنْهُم أَحَدًا ، ودَيَّارًا : بمَعْنى يَدُورُ أَوْ يتحرَّكُ فِى الأَرْضِ .

واسْتَجابَ اللّهُ تَعالَى لهُ وقالَ لَهُ :

﴿ وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنَا وَلاَتُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾[2].

أَمَرهُ اللّهُ – عَزَّ وجَلَّ – أنْ يَصْنَعَ سَفِينَةً ، لِيَنْجُو فيهَا هُوَ وَمنِ اتَّبَعَهُ مِنَ المؤْمِنِينَ مِنَ الطُّوفانِ ، لأَنَّ الطُّوفَانَ سَيُغْرِقُ الأَرْضَ كُلَّها .

* * *

(١) سورة نوح : الآية ٢٦ .
(٢) سورة هود : الآية ٣٧ .

وبَدَأَ نُوحٌ – عَليهِ السَّلامُ – هوَ وأَبْنَاؤُهُ الثَّلاثَة : سَام ، وحام ، ويافث ، فى صِناعَة السَّفِينَةِ فى الصَّحْراءِ المجاوِرَة لِمدينَتِهِمْ .

ولكنَّ القَومَ ازْدادُوا سُخْريةً واسْتِهزاءً بنُوحٍ وبأَبْنَائِهِ الثَّلاثةِ المؤْمنِينَ ، وهُمْ يصْنَعُونَ السَّفينةَ فَوقَ رِمالِ الصَّحْراءِ ، يَجْمعُ الناسُ بَعْضُهُم بَعْضًا ، ويَذْهبُون إلَيهِم جَماعَات جَماعَات ، يهْزءُونَ ويسْخَرُونَ ، ويُطبِّلونَ ويرْقصُونَ ، قائِلينَ : ما هَذا يا نُوحُ ، هَلْ بَلغَ بِكَ الجُنونُ أنْ تَصْنعَ سَفينةً فى الصَّحْراءِ ؟ .

هَلْ عِندَك مِنَ الخَبلِ – الجُنُون – ما يُمكِّنكَ مِنْ تَسْيِيرِ السَّفِينَةِ فَوقَ الرِّمالِ ؟.

يقُولُ تَعالَى ، يَصفُ هَذا المنْظَر :

﴿ وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾(١).

والفُلْك : يَعْنى السَّفينةَ ، والمَلأُ : يعْنِى الجَمْع مِنَ النَّاسِ .

(١) سورة هود : الآية ٣٨ .

ولكنَّ نُوحاً فى هذِهِ المرةِ ، لَمْ يقْبَلْ سُخريتَهُم واستِهزاءَهُم ، لأنَّ اللّهَ تَعالَى وعَدهُ بإغْراقِهِم ، فَقالَ لَهم كَما جاءَ فى القُرآن الكَرِيمِ :

﴿ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾(١) .

لَقَد اسْتَهزأَ بهِ قَومُه وقالُوا: تَحوَّلتَ نَجَّارًا بَعْد النُّبوةِ يَا نُوحُ .

* * *

وتَمَّت صِنَاعَةُ السَّفِينَةِ مِنْ خَشَب اسْمُه «خَشَب السَّاج» وكانَتْ كلُّها حُجُرات مَطْلية مِنَ الدَّاخِلِ والخَارِجِ بمَادَّةٍ تَمنَعُ تَسرُّب الماءِ إلَى دَاخِلِهَا . وكانَتِ السَّفِينَةُ ، مِنْ ثَلاثةِ طَوابِقَ ، وطُولُها مائتَا مِترٍ ، وعَرْضُهَا خَمسةٌ وثَلاثُونَ مِترًا ، وارْتِفاعُهَا عِشْرُون مِترًا .

الطُّوفَانُ :

بَقِيَتِ السَّفِينَةُ ، بَعْدَ انْتِهاءِ صُنْعِها فى مَكانِهَا فَوقَ الرِّمالِ ، أَربَعِينَ سَنةً ، ونُوحٌ ينْتَظرُ الطُّوفانَ ، بَينَ لَحْظةٍ وأُخْرَى ،

---

(١) سورة هود : آيتا ٣٨ ، ٣٩ .

فَكانَتِ السَّفينةُ فى هَذِهِ الفَتْرةِ وسِيلَةً مِنْ وسَائلِ السُّخْريةِ منْهُ ، فكانَ القَومُ يذْهبُونَ إليهَا كلَّ يَومٍ .. يَتبولُونَ ويَتَبَرَّزُونَ فِيها ، ومنْ طُــولِ الزَّمنِ ، امْتَلأتْ بالقَاذُورَاتِ والأوْسَــاخِ .

ولما اقْتَربَ مِيعادُ الطُّوفانِ ، ابْتَلاهُم اللّهُ تعَالَى بمرَضِ الجَرَب ، والأَجْرَبُ يُمزِّقُ جلْدَه بأظَافِرِه .

ولَكنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أنْ يقُومُوا هُم بتَنْظِيفِ السَّفِينَةُ منَ الأوْسَاخ والأقْذَار ، لاعْتِقادِهِمْ أنَّ فى الأَقْذارِ عِلاجاً لِمرضِ الجَربِ اللَّعينِ الَّذِى أَصابَهُم .

* * *

وفى يَومٍ منَ الأيَّام ، جَلسَتِ امْرأةُ نُوحٍ الكَافِرةُ أَمامَ الفُرْن ، تَصْنعُ الخُبزَ ، وإذَا بالماءِ ، يَتفجَّرُ منْ بَينِ أَلسنةِ النِّيرانِ ، ويندَفِعُ غَزِيراً نَحْو صَدْرِها ، فكانَت أَوَّل الهَالِكينَ ، غَرقاً وحَرْقاً فى الْوَقْتِ نفسه لأنَّ الماءَ يغْلى ، فَهوَ خَارجٌ مِنَ الفُرنِ ، يقُول تَعالَى : ﴿ حَتَّى إذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾[1] .

(١) سورة هود : الآية ٤٠ .

أَمْرُنَا أىْ : وَعْدُنا بالطُّوفانِ ، وقَدْ أَوْحَى اللّه تَعالَى إلَى نُوحٍ – عَليهِ السَّلامُ – إذَا رَأيتَ تَنُّور أهْلِكَ يخْرجُ مِنهُ الماء ، فارْكَب السَّفِينَةُ ، فإنَّ تلْكَ هِيَ الإشارَةُ والمعجزةُ لهَلاكِ قَومكَ .

ثمَّ فُجِّرَتِ الأرْضُ عُيُونًا ، وفُتِحَتْ أبْوابُ السَّماء بمَاءٍ منْهَمرٍ ، والْتَقَى مَاءُ الأرْضِ بمَاءِ السَّماءِ .

العَالَمُ كلُّه فى السَّفِينَةُ :

أحْضَرَ نُوحٌ – عَليهِ السَّلامُ – أَزْواجًا مِنْ جَميعِ المخْلُوقاتِ ، ذكراً وَأُنْثَى، مِنْ كلِّ نَوعٍ وجِنْسٍ ، مِنَ الوحُوشِ ، والأنْعَامِ والطَّيرِ ، والحَشراتِ ، كلُّ زَوجٍ يَأخذُ طَريقَهُ ، إلَى مَكانِه الخَاصِّ بِهِ فى السَّفِينَةُ .

ورَكبَ نُوحٌ وأَبْناؤُهُ الثَّلاثَةُ المؤْمِنُون ، ومَعهُم زَوْجاتُهُم ، ومَعَهُم أيْضاً عَددٌ قَليلٌ منَ الناسِ ، آمنُوا بنُوحٍ – عَليهِ السَّلامُ – ركبُوا كلهُم فى الطَّابَقِ العُلْوِىِّ مِنَ الطَّوابقِ الثَّلاثةِ ، منَ السَّفينةِ ، وَمعهُم مَوادُّ التَّموينِ ، لِغِذاءِ هذِه المخْلُوقاتِ ، مُدَّة الطُّوفانِ .

وحَملَ نُوحٌ – عَليهِ السلامُ– مَعهُ فى هذا الطَّابَقِ ، أَسْفَار جَدِّه إدْرِيس ، والأَسْفارُ هِيَ الكتُبُ الَّتى أَنْزلَها اللّه عَلَى نَبيِّه إدْرِيس ، كَما حَملَ نُوحٌ أَيْضاً مَعهُ فى السَّفينةِ تَابوتَ جَدِّه الأَكْبرِ – آدَم عَليهِ السَّلامُ – وجَعلَه فى السَّفِينَةُ ، بَينَ الرِّجالِ والنساء ، وكَان فى الطَّابَقِ الأَوْسَط الدَّوابُّ والأَنْعامُ ، مِنَ الإبلِ والبَقَر والغَنَم والطَّيرِ وغَيْرهـا ، مِنْ كلِّ نَوعٍ ذَكَر وأُنثَى .

أَمَّا الطَّابقُ السُّفلىُّ ، فَفيهِ السِّباعُ والوحُوشُ ، والحَيواناتُ المفْترسةُ ، وحَملَ نُوحٌ – عَليهِ السلامُ – مَعهُ فى الطَّابق العُلْوىِّ الحَشَرات الضَّعِيفة ، خوفًا مِنْ أَنْ تَدُوسها الدَّوابُّ والأَنْعـامُ .

يقُولُ تَعالَى :

﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَليلٌ ﴾(١) .

مِنْ كُل زَوجَينِ اثْنَيْن : أىْ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ ذَكرًا وأُنْثى .

إِلاَّ مَنْ سَبقَ عَليهِ القَوْلُ : إِلاَّ كُلّ مَنْ أُنْذِرَ بالعَذابِ .

---

(١) سورة هود : الآية ٤٠ .

الأرضُ كلُّها تَغْرقُ :

وانْهَمر المطرُ سُيولاً عارِمةً ، حتى ارْتفَع الماءُ فى الصَّحراء ، واخْتلطتْ مِياهُ الأنْهارِ بالمحِيطاتِ ، وغَرقَتِ الأَرضُ كلُّهَا بإذْنِ ربِّها ، وعامَتِ السَّفينةُ بِمَنْ فِيها ، آخِذَةً طَريقَها إلَى حَيثُ يَشاءُ اللَّهُ فى رعايَتِهِ وعِنايتِه – سُبْحانهُ وتَعالَى – ودُونَ عَناءٍ أوْ مَشقَّةٍ مِنْ نوحٍ – عَليهِ السَّلامُ – أوْمِن قَومِهِ ، لأنَّ السَّفِينَةُ الضَّخْمةَ العمْلاقةَ كانَتْ فى صَحْراء قَاحِلةٍ .. وَفَوْقَ رِمالٍ غَزِيرَةٍ ، حتَّى ظَنَّ الكَافرونَ أنَّه لَنْ يسْتَطِيع أنْ يَجرها إلَى الماءِ إنسانٌ ، ولكنْ بقُدْرةِ اللّهِ سَارَتْ ، ثُم عامَتْ فى يُسرٍ ورِفْقٍ ودُون عَناءٍ .

يقُولُ تَعالى :

﴿وقَالَ ارْكبُوا فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١) .

وأصْبَحتْ هذِه الآيةُ دُعاءً قُرآنِيًّا إلَى أنْ تَقومَ السَّاعةُ ، نَحتاجُ إلَى ذِكْرهـا والاسْتِئناسِ بهَا عِنَد رُكوبِ وسَـائلِ

(١) سورة هود : الآية ٤١ .

السَّـفرِ كلِّها ، سَـيارةً كانَتْ أو طَيَّارةً – أوْ قطـارًا أوْ سَـفِينةً .. إلخ .

* * *

كَنْعان يعْصى وَالدَهُ :

وتَطلع نوحٌ – عَليهِ السلامُ – فرَأَى ابْنَه كَنْعانَ الكافِرَ ، يتَّجهُ إلَى الجَبَل ، هُروبًا مِنَ الطُّوفانِ ، فَنادَاهُ نوحٌ قَائلاً :

﴿ يَابُنَىَّ ارْكَبْ مَعَنَا ولاَ تكُنْ مَعَ الكَافِرِين ﴾(١) .

ولكنَّ هَذا الوَلَد العَاقَّ لأَبيهِ قالَ : ﴿ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماءِ ﴾(٢) .

ويعْصِمنِى : أىْ يَمنعنِى .

وامْتَنع عَنْ طَاعةِ أَبيهِ وهُو يقُول لَه : إنَّه سَيلْجأُ إِلَى جَبلٍ يَحْفظهُ مِن الغَرَق ، فَقالَ لهُ أَبوهُ : يا بنىَّ ﴿ لاَعَاصِمَ اليَوْمَ منْ أَمرِ اللَّه إلاَّ مَنْ رَحِمَ ﴾ .

---

(١) سورة هود : الآية ٤٢ .
(٢) سورة هود : الآية ٤٣ .

ولَطَمت كَنْعانَ موَجةٌ طَاغيةٌ ، جَعلتْه يَهْوى إلَى أسْفَلِ سَافِلِينَ – أَمامَ أَبيهِ ، فَغَلبتْ نُوحًا عَاطِفَةُ الأُبوَّةِ – فَقالَ :

﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِى منْ أَهْلِى وإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ ﴾[1].

أى : الذِى لاَ خِلاف فيهِ .

فَقالَ اللّهُ تَعالَى لنُوحٍ :

﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ منْ أَهْلكَ﴾[2].. لأنَّ أَهْلكَ هُم الذِينَ اتَّبعوك وآمنُوا مَعَك .

وسَارتِ السَّفينةُ تَدْفعُها جبالُ الأَمْواجِ ، بَينَ عُيونِ الأَرْضِ المتفجِّرةِ ، وأَبْوابِ السَّماءِ المُتفتِّحةِ ، وارْتفَع الماءُ فَوق أَعلَى قِمَّةٍ مِنَ قمَم الجِبالِ ، ولَم يَبقَ من نَبضَات الحَياةِ فَوقَ سَطْح كَوكَب الأَرْضِ ، غَيرُ سَفِينةِ نُوحٍ ، تَخْترقُ الماءَ ، فى هَدِير رَهيبٍ ، مُتَلاطِم الأَمْواجِ ، شَديدِ الأَعاصِيرِ ، وقَدْ حَوتِ العَالَم كُلَّه فى دَاخِلِهَا منْ إِنْسانٍ وحَيوانٍ ، ووُحوشٍ وأَنْعامٍ ، وطُيورٍ وحَشراتٍ وهَوامّ .

---

(١) سورة هود : الآية ٤٥ .

(٢) سورة هود : الآية ٤٦ .

النَّجـــاةُ :

عامَتِ السَّفينَةُ برُكَّابها وسارت مَعَ الأمْواجِ ، حتَّى رَستْ عَلَى جَبل اسْمه «الجُودِيّ» فى أرْضِ الموصِل ، شَمال العِراقِ ، بَيْن تُركيا وإيران ، بَعْد أنِ انْقطَع الماءُ الهابِطُ مِنَ السَّماء ، والنَّابعُ مِنَ الأرْضِ ، يقولُ تَعالَى :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَاءُ وقُضِىَ الأَمْرُ واسْتَوَتْ عَلَى الجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَومِ الظَّالِمينَ ﴾(١) .

بَلعَتِ الأَرضُ ماءَهَا ، وأمْسَكتِ السَّماءُ مَطَرهَا ، ورَسَت السَّفينةُ عَلَى جَبلِ الجُودِىِّ ، وأقْلعِى مَعْناها : أمْسِكى المطَر ، وغِيضَ الماءُ : أىْ ذَهَبتْ بهِ الأرضُ ونَشَّفَتْهُ .

ولهذا قالَ المفسِّرونَ : أكْرَمَ اللّه ثَلاثةَ جِبالٍ بثَلاثةِ رجالٍ : أكْرَمَ جَبَلَ الجُودىِّ بنُوحٍ ، وأكْرَمَ جَبَل الطُّورِ بمُوسَى ، وأكْرَم جَبَل حِراء بمُحمدٍ ، عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ .

* * *

(١) سورة هود : الآية ٤٤ .

الحمامةُ وغُصْنُ الزَّيتُون :

بعد أنْ رَسَتِ السَّفينةُ عَلى جَبَل الجُودِيِّ ، أرسَلَ نوحٌ الحَمامةَ ، لتكْتشِفَ مَكاناً مِنَ الأرضِ ، جَفَّ عَنْه الماءُ ، لِيَنْزِلُوا فيهِ ، فَعادَتِ الحَمامةُ ، وفى مِنْقارِهَا غُصنٌ مِن أغصانِ الزَّيتُون ، فَعرفَ أنَّ الأَرضَ أنْبتَت وتَرعْرعتْ حَتى صَارَ للنَّباتِ أغْصانٌ – بقُدْرَةِ اللّه – ويعْنى ذلك أنَّها أصبَحتْ صَالحةً ، لِيَنْزِلُوا إلَيْها .

ولهذا صَارتِ الحَمامةُ وفى فَمِها غُصْنُ الزَّيتُون ، رَمزًا للسَّلام إلَى يَومنَا هَذا ، ونزَلُوا منْ فَوقِ الجبالِ ، وكانَ نزُولُهمْ فى يَومِ عَاشُوراء ، اليَوْم العَاشِر مِن شَهر المحَرَّم ، لِيعَمرُوا الأرضَ بَعدَ الطُّوفانِ ، يقُولُ تَعالَى :

﴿ قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾(١) .

* * *

(١) سورة هود : الآية ٤٨ .

ولا يُوجَد عَلى سَطْحِ الأَرْضِ الآنَ إنْسانٌ ، إلاَّ وهُوَ مِنْ نَسلِ وَاحدٍ مِنْ أَبْناءِ نُوحٍ الثَّلاثَة ، أَمَّا مَنْ كانَ مَعَهُم مِنَ المؤْمِنينَ ، فَلَم يَجْعلِ اللّهُ لَهُم أَبْناء ، لِقَولِهِ تَعالَى عَنْ نُوحٍ : ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِيتَهُ هُمُ البَاقِين ﴾[1]. ذُرِّيةُ نُوحٍ هُم البَاقُونَ عَلى سَطْحِ الأَرضِ فَقَط منْ بَعدِ نُوحٍ إلَى يَومِ القِيامَة ، فالعَربُ ، وفَارسُ ، والرُّومُ وأَهْلُ الشَّام، واليَمَنِ – يَعْنِى كلّ منْطقةِ الشَّرق الأَوْسَط – كلهمْ مِنْ نَسْلِ سَامِ بْنِ نُوحٍ ، أَمَّا حَام بنُ نوحٍ ، فَهُو أَبو الجِنْس الأَسْود ، يعْنِى أَغْلَب سُكَّان أَفْرِيقيَا وأَمْرِيكا الجَنوبيَّة ، أَمَّا أُوربَّا وأَمْرِيكا الشَّمَاليَّة ، فَهم مِنْ نَسْل يَافث بنِ نُوحٍ ، فنُوحٌ هُو آدمُ الثَّانى ، لأَنَّ كُلَّ مَنْ عَلَى الأَرْضِ الآنَ هُوَ مِنْ نَسْلِه .

وَصيَّةُ نُوحٍ لابْنِه سَام :

لما حَضَر نوحًا المَوْتُ ، دَعا ابْنَه سَام ، وهُو أَكْبَر أَبْنائِهِ فَقالَ لهُ : يا بُنىَّ أَنْهاكَ عَنِ اثْنَيْنِ ، وأُوصِيكَ باثْنَيْنِ :

---

(١) الصافات : الآية ٧٧ .

أنْهاكَ عَنِ الإشْراكِ باللهِ ، وعَنِ الكِبْرِ ، فإنَّه لا يدخلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ فى قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ منَ الشِّركِ أوِ الكِبْر .. والكبرُ هُو الغُرورُ بالنَّفْس .

وأُوصِيكَ بقَولِ : «لا إلهَ إلاَّ اللّه» .. فلَو اجْتَمعَت السمَواتُ والأَرَضُونَ لخرَقَتْها «لا إلَه إلاَّ اللّه» حتَّى تَبلُغ رَبَّهَا ، ولَوْجُعِلَتْ «لا إلهَ إلاَّ اللّهُ» فِى كِفَّة مِيزانٍ ، لرَجَحتْ بالسَّموات والأرْضِ .

يَعْنِى تَكُون أثْقَل مِنَ السَّمواتِ والأرْضِ .

كَما أنَّ «سُبْحَانَ اللّهِ» هِىَ صَلاةُ الخلْقِ ، وبها يُرزَقُون .

وسَلامٌ عَلَى نُوحٍ فى العَالَمينَ .

* * *

من حياة المرسلين

هُود عليه السلام

ومدينة الأعمدة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى البِلَادِ ﴾ .

[سورة الفجر آيات ٦ – ٨]

مَدِينةُ إِرَمَ :

وَرِثَ الأَرْضَ بَعدَ طُوفانِ نُوحٍ – عَلَيهِ السَّلامُ – أَبناؤُه الثَّلاثةُ : سَام وحَام ويَافِث، لأنَّ رسُولَنا – صَلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم – قالَ :

«وَلَدُ نُوحٍ ثَلاثَة : سَام وحَام ويَافِث : فَسَامُ أَبو العَرَب وفَارِس والرُّوم ، وحَام أَبو السُّودِ ، ويَافِث أَبو التُّرك»[1].

ومَعْنى هَذا الحَديثِ الشَّريفِ ، أنَّ سَام بنَ نُوحٍ أَصْلٌ لِكلِّ سُكانِ مِنْطَقة الشَّرقِ الأَوْسَط الآنَ ، وشَرْق أُوربا . وأنَّ حَام بْنَ نُوحٍ أَصْلٌ لسُكَّان قارَّةِ أَفْرِيقيَا ، وأمريكَا الجَنُوبيَّة . أَمَّا يَافِث الابْنُ الثَّالثُ لنُوحٍ – عَليهِ السَّلامُ – فَهو أَصْلٌ لسُكَّان غَرْب وشَمالِ أُوربَّا وأَمْرِيكا الشَّمالِيَّة ، لأنَّ رسُولَ اللّه – صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم – يقْصِد بقَولِهِ : أنَّ يافِثَ أَبو التُّركِ يعْنِى المَناطِق الشَّمالِيَّة مِنَ الأَرْضِ بَعْد الطُّوفانِ .

* * *

(١) من مسند الإمام أحمد ، وذكره الثعلبى وابن كثير .

وهذِهِ القِصَّةُ التِى يقصها اللّهُ – تَعالَى – علينا فى القُرآنِ ، حَصلَت أحْداثُها فى جَنوبِ الجَزِيرةِ العَربيَّةِ ، حيثُ يُقيمُ نَسلُ عَادٍ ، وعَادُ بْنُ عُوص ، وعُوص بنُ إرَمَ بنُ سَـام بنِ نُوحٍ – عَليهِ السَّلامُ – ومَسَاكنُ قَـوم عَـادٍ فى أرْضٍ سمَّاها اللّـهُ – تَعَالَى – أرْضَ الأحْقَافِ ، وهِىَ الآنَ المِنْطَقَةُ التِى تَقَعُ فى شَمالِ حَضْرَمَوْت وعُمَان ، ومَكانُهَا رِمالٌ هشَّةٌ شَدِيدةُ النُّعومَةِ ، تَبتَلعُ كُلَّ ما يَقَعُ فَوقَها ، ولذَلكَ يُسمُّونَها : مِنطقَة الرِّمـالِ المُتحرِّكةِ فى الرُّبْع الخَالى مِنَ المَمْلكَةِ العَربيَّةِ السُّعوديَّةِ .

سَكَن قَومُ عادٍ هذِهِ المِنْطَقة بَعْد طُوفانِ نُوحٍ – عَليهِ السَّـلام – وعَمَّروهَا ، وأوْجَدُوا فِيهَا حَضارَةً عَظِيمةً ، ومَدنيةً كَبيرةً .

وهَبهُم اللّه – تَعالَى – مِنَ العُلومِ والمُكتَشَفَات ، ومِنَ الحَضَارةِ ما جَعَلهُمْ يَبْنونَ المُدُن الكَبيرةَ ، والعِمارات العَالِيةَ الَّتِى لَمْ تَكُن مَعْروفةً فى ذلكَ الزَّمَن البَعيدِ ، ممَّا لا يُوجَد مِثْلهُ فى البِلادِ كُلِّها ، يقُولُ اللّهُ – تَعالَى – عَنْهُم :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فى البِلاَدِ ﴾[١].

وإِرَمَ : اسْمُ مَدِينَتِهِم سَمَّوهَا باسْمِ جَدِّهِم إِرَمَ ، وذَات العِمادِ : يَعْنِى فِيهَا أَعْمِدَةٌ مُرْتَفِعَةٌ ، كَمَا أَنَّهُمْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى إِنْشَاءِ المَصَانِعِ .. يقُولُ اللّه لَهُم : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾[٢].

والمَقْصُودُ بالمصَانِع : الحُصُون ، والقُصُورُ ، والحِياضُ للماءِ التِى مِنْها يَشْرَبُونَ .

* * *

أَكْثَر النَّاسِ حَضارةً وقُوةً :

وفَّرَ اللّهُ – تَعالَى – لِقومِ عَادٍ كلَّ أَسْبابِ السَّعادةِ فى الدُّنْيا : مِنْ رِزْقٍ وَفيرٍ ، وخَيرٍ كَثيرٍ ، كانَتْ لَهُم بسَاتِينُ زَاهِرةٌ ، ومَزارِعُ واسِعةٌ ، وعِماراتٌ عَاليةٌ ، ومَصانِعُ ضَخْمةٌ ، وكانَتْ بِلادُهُم أَخْصَبَ البِلادِ .

---

(١) سورة الفجر : الآيات ٦ – ٨ .

(٢) سورة الشعراء : الآية ١٢٩ .

يقُولُ اللّهُ تَعَالَى عَنْهُم : ﴿ وأَتْرَفْنَاهُمْ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[١] .

وأَتْرَفْناهُم ، يعْنِى : متَّعْناهُم .

يقُولُ لَهُم نَبِيُّهُمْ كَمَا فِى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وجَنَّاتٍ وعُيُونٍ ﴾[٢] .

وأمدَّكُم : يعْنِى أعْطَاكم ، والأَنْعامُ : هِىَ البَهائمُ مِنَ البَقَر والغَنَم والجِمَال وغَيْرها .

والعُيونُ : يَعْنِى ينَابِيع المَاءِ مِن آبارٍ وعُيُونٍ .

وغير هَذا .. أعْطَاهم اللّه تَعَالَى كُلَّ وسَائِل الفِكْرِ والعِلْم ، يقُولُ تَعَالَى :

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴾[٣] .

ووسَائِلُ الفِكْرِ والعِلْمِ ، هِىَ السَّمْعُ ، والبَصَرُ ، والفُؤَادُ .

وفَوْقَ هَذا كُلِّه ، وهَبَهم اللّهُ أجْسامًا قَوِيةً ، طُولاً ، وضَخامَةً ، وشِدَّةً .

---

(١) سورة المؤمنون : الآية ٣٣ .
(٢) سورة الشعراء : آيا ١٣٣ ، ١٣٤ .
(٣) سورة الأحقاف الآية ٢٦ .

يقُولُ تَعَالَى عَنْهم :

﴿ واذْكُرُوا إذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الخَلْقِ بَسْطَةً ﴾[١].

يعْنِي : زادَكُم عِظَمًا وطُولاً وضَخامةً .

فهل تتخيَّل الآن قُوَّة الرَّجُلِ مِنْ قَومِ عَادٍ ، بهذَا الجِسْم الضَّخْم وهُوَ يقْتلع الصَّخْرةَ مِنَ الجَبَل بِيَدِهِ ؟[٢].

وكَمَا يقُولُ أبُو هُريرةَ – رَضىَ اللّه عنه – وَهُوَ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عليهِ وسَلَّم – «إن الرَّجلَ مِنْ قَوم عَادٍ ، كانَ يصْنَع البَابَ مِنَ الحِجارَةِ ، ولَوِ اجْتَمَع عَلى هَذا البَابِ – النَّفر الكَثيرُ – لَمْ يقْدِرُوا عَلى حَمْلِهِ»[٣].

ولَولاَ أنَّ اللّه تَعَالَى قَالَ عنْهُم : ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ .. لَقلْنَا إنَّ هَذا الوَصْف فِيهِ مُبالَغةٌ لا يقبَلهَا العَقْل ، ولكنَّها قُدرةُ القَادِر ، وقُوة القَوىِّ – سُبْحانَه وتَعَالَى – .

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٦٩ .
(٢) الكشاف والبيضاوى والنسفى وغيرهم .
(٣) القرطبى – ٦٩/ الأعراف .

ولكنَّ قَومَ عادٍ ، بَدلاً مِنْ شُكرِ اللَّهِ عَلى نِعَمهِ عَلَيهم وحَمْدِه عَلَى هَذا الفَضْل الواسِعِ ، والخَيرِ الكَثِيرِ ، بَدلاً مِنْ شُكْرِ اللَّهِ وحَمْدِه كَفَروا بهِ ، واتَّخذُوا أَصْناماً يَعْبدُونها مِنْ دونِ اللَّهِ ، فكَانَ لَهمْ ثَلاثةُ آلِهَةٍ : مِنَ الحِجارَةِ اسْمُها : صدَّاء .. وصَمُود والهبَّاء[1].

وأَفْسدُوا فى الأَرْضِ ، وتَجبَّروا فِيها : بَطْشًا ، وظُلمًا ، وكُفْرانًا .

يقُول تَعالَى :

﴿ وقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[2] ويقُولُ اللَّهُ لَهُم أيضًا: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[3].

لقد كَفروا بسَببِ قُوَّتِهم التِى أَعْطاهَا اللّهُ – تَعَالَى لَهُم ، ولذَلكَ يقُولُ تَعَالَى :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾[4].

(١) تفسير الكشاف – ٧١/ الأعراف .
(٢) سورة فصلت : الآية ١٥ .
(٣) سورة الشعراء : الآية ١٣٠ .
(٤) سورة فصلت : الآية ١٥ .

الرَّسولُ :

إنَّ اللّهَ – تَعَالَى لا يُعذِّبُ أَقْوَامًا كَفَرُوا بهِ إلاَّ بَعْد أنْ يُرسِلَ إلَيهِم رَسُولا ، يُبيِّنُ لَهُم الهُدَى من الضَّلالِ ، والحَقَّ مِنَ البَاطِلِ ، فأرْسَل إلَى قَوم عَادٍ رسُولاً مِنْ إحْدَى قَبائِلهِم ، هُو نَبيُّ اللّهِ هُود – عَليهِ السَّلامُ – وكانَ مِنْ أعْظَم عَائِلاتهِم نَسَبًا ، ومِنْ أجْمَلِهِم وجْهًا ، وكانَ جِسْمُهُ فى مِثلِ أجْسامِهِم ، أَبْيضَ ، طَوِيلَ اللِّحْيَةِ .

وهُو: هُودُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بنِ رِياح بْنِ الخُلُود بْنِ عَادِ بْنِ عُوص بْنِ إرَم بْنِ سَام بْنِ نُوح ، فكانَ بَينَ سَيِّدنا هُود ، وسَيِّدنا نُوحٍ سَبْعَة آباءٍ .

وظَلَّ هُودٌ يُذَكِّرهُم بآلاءِ اللّهِ ونِعَمهِ ، وأفْضالِهِ عَليهِم وكَرمِه ، ويُخوفهُم مِنْ بَطْش اللهِ وعَذابه ، أَمرهُم بتَوحِيدِ اللّهِ ، ونَهاهُم عَن الظُّلْم والطُّغْيان ، والبَطْش والكُفْران .

ولكَّنهم هاجَمُوا هُودًا – عَليهِ السَّلامُ – وكذَّبوهُ ، وشَتَموهُ وسَبُّوهُ ، وقالُوا لَهُ :

﴿ إنَّا لَنَرَاكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٦٦ .

والسَّفِيهُ : هُو الَّذِى لا رَأْىَ لَهُ .. ولا يُؤْخَذُ بكَلامِه .

ولكنَّ هُوداً – عَليهِ السَّلامُ – كانَ يُقابلهُم بالعَفْو والصَّفْح فَيقولُ لَهُم :

﴿ يَاقَوْمِ لَيْس بِى سَفَاهَةٌ ولكنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُم رِسَالاَتِ رَبِّى وأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أمين ﴾(١) .

هكَذا تَكُونُ أخْلاقُ الأنْبياءِ وأَدبُهُم العَالِى ، يُقابِلونَ الإساءَةَ بالعَفْو ، والأذَى بالصَّفحِ .

واسْتَمرَّ هُودٌ – عَليهِ السَّلامُ – يَدْعُوهُم إلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَه ، وتَرْكِ عِبادَةِ الأصْنَامِ ، تَحدَّاهُم هُودٌ – عَليهِ السَّلامُ – بمفْردِهِ ، رَجلٌ وَاحدٌ يُواجِه أمَّةً جَبَّارةً عاتِيةً ، فَهُم قَومٌ جُفاةٌ ، قُساةُ القُلوب ، غِلاظُ الأكْبادِ ، لا يُبالون بالكُفْر ، ولا يستَمِعُون إلَى النُّصْح ، وما ذَلكَ إلاَّ لِثقة هُودٍ – عَليهِ السَّلامُ – بربِّه ، القَادِرِ عَلَى كُلِّ شَىءٍ ، فالأُمور كلُّها بِيَدِهِ ، يُحرِّكهَا كَيْفَ يشاءُ .

---

(١) سورة الأعراف : آيتا ٦٧ ، ٦٨ .

قالُوا : يَا هُودُ ، كَيفَ تَنْهانَا عَنْ عِبادَة الآلِهَةِ ، وقَدْ وجَدْنا آباءَنا يَعْبدُونَها ؟

لَقَد أصَابَتْك آلِهتُنا بالخَبَل والجُنُون ، لأَنَّكَ تَسبُّها وتَشْتُمها ، وتَنْهانا عَن عِبادَتهَا، فأنْتَ مَجْنونٌ، يقُولُ تَعَالَى : إنَّهمْ قالُوا لَهُ :

﴿ إنْ نَقُولُ إلاَّ اعْتَرَاك بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾[1].

فَقَال لَهُم وَاثقًا مِنَ اللَّهِ :

﴿ فكِيدونِى جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ * إنِّى تَوكَّلْتُ عَلى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَا مِنْ دَابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾[2].

يعْنِى : كلُّ الأُمورِ بِيَد اللَّهِ وحْدَه ، مَهْمَا تُدبِّرونَ مِنَ المكائِدِ ضِدِّى .

لَمْ تُفْزِعْهُ قُوَّتُهُم ، أوْ يُرهِبْهُ بطْشُهُم وجَبَروتُهم ، لأنَّ الإيمانَ باللَّهِ يَمْنَحُ المُؤْمِنَ قُوَّةً لا تَغْلِبُهَا قُوَّةٌ ، مَهْمَا كَانَتْ عَظِيمَةً .

* * *

(١) سورة هود : الآية ٥٤ .

(٢) سورة هود : آيتا ٥٥ ، ٥٦ .

قَالَ لَهُم هُودٌ – عَليهِ السَّلامُ – :

﴿ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[١] إنْ لَمْ تُؤمنُوا باللَّهِ وحْدَه فلَم تُفِدْهُم هَذِه المَواعِظُ ، ولَمْ يُطِيعُوهُ ، واسْتَمرُّوا فِى كُفْرِهم وعِنادِهِم وتَحدِّيهِم ، فَقَالُوا لَهُ :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[٢].

يقُولونَ لَهُ : أنْتَ تَعِدُنَا بالعَذابِ .. فأيْنَ هُو هَذا العَذابُ يا هُودُ ؟

فَقَالَ لَهُم غَاضِبًا :

﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾[٣] .

والرِّجْس : هُو العَذابُ .

وبَدأَ اللَّه – تَعَالَى – فى تَعْذِيبهم .. فى الدُّنْيا .

* * *

(١) سورة الشعراء : الآية ١٣٥ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٧٠ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ٧١ .

بِدايَةُ الشَّقاء :

كانَ قَوْمُ عَادٍ أَصْحابَ بساتِينَ وزُرُوعٍ ، وأَشْجَارٍ وأَنْعَامٍ ، كمَا ذَكَرْنا مِنْ قَبْلُ ، فكانَ أَهَمَّ شَيْءٍ عِنْدَهُم هُوَ الماءُ ، يـرْوُونَ بهِ مَزارِعَهُم وحَدائِقَهُم ، ويشْرَبونَ مِنْه ، ويسقُون أَنْعامَهُم .

فأَصابَهُم الجَفافُ ، وأَمْسَكَ اللَّه عَنْهُم المطَر ، مُدةً مِنَ الزَّمنِ ، مِقْدارهَا ثَلاثُ سِنِينَ ، مَرُّوا فِيهَا بمَراحِلَ مِنَ الشَّقاء والهَلاكِ ، وكانُوا كُلَّما اشْتدَّ بِهِمِ الشَّقاء والجَهْد ، ذَكَّرهُم هُودٌ – عَليهِ السَّلامُ – بأَنَّه لا نَجاةَ لَهُم إلاَّ بالْعَوْدةِ إِلَى اللَّهِ ، والاسْتِغْفار مِمَّا ارْتكبُوا مِنَ الذُّنوبِ ، مُبَيِّنًا لَهُم أَنَّه لَهُم نَاصِحٌ أَمِينٌ ، لا يَبْغِى لَهُم إلاَّ سَعَادَة الدُّنْيا والآخِرَة ، يقُولُ تَعَالَى ، إنهُ قالَ لَهُم :

﴿ وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾[1] .

---

(١) سورة هود : الآية ٥٢ .

والمِدْرارُ : هُوَ المَطَرُ الغَزِيرُ .

وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُطِيعُوهُ ، وازْداد بِهِمُ الجَفَافُ ، وهَلَكَ الزَّرْعُ ، وأَشْرَفُوا عَلَى الهلاكِ .

* * *

كانُوا فى مِثْل تِلْكَ الحَالِ – يَلْجَئُونَ إِلَى طَلَبِ الفَرَجِ مِنَ اللَّهِ عِنْدَ بَيْتِهِ الحَرامِ ، فى مَكَّة .

كَانَ قَوْمُ عادٍ – بِرَغمِ كُفْرِهم – يُعَظِّمُونَ بَيْتَ اللَّهِ الحَرام بمَكَّة ، ويُقدِّسُون «العَماليقَ» سُكَّانَ مَكةَ فى ذلكَ الزَّمنِ البَعيدِ .

وسُمِّىَ أَهْل مَكَّة بالعَمالِيقِ ، لأَنَّهمْ كانُوا مِنْ نَسْل عمليق بنِ لاَوِذ بنِ سَام بنِ نُوح ، وكانَ رَئيسُ مَكَّة – فى هَذَا الحِينِ – اسْمُه : مُعاوِيةُ بنُ بَكْرٍ ، فَقَام قَوم عَادٍ بتَجْهِيزِ وفْد مِنْ سَبعينَ رَجُلا مِنْ عُظمائِهِم ، بزَعامَة رجُلٍ اسْمُه : قَيْل بْنُ عَنَزة ، وأَرْسَلوا هَذا الوفْدَ إِلَى مَكَّة ، لِطَلَب الفَرَج مِنْ رَبِّ البَيْت الحَرامِ[1] .

(١) انظر تفسير آيتى ٧١، ٧٢ من سورة الأعراف فى الكشاف للزمخشرى والنسفى .

وفْدُ عادٍ إلَى بَيتِ اللَّهِ الحرامِ :

سارَ وفْدُ عَادٍ مِنْ بِلادِ الأحْقافِ ، فى جَنُوب الجَزِيرةِ العَربيَّة ، يقْصِدُونَ مَكَّة ، فَوصَلُوها بَعْد مَسيرَة شَهْر ، ونَزلُوا ضُيوفاً عِنْدَ زعيمِ مَكَّةَ مُعاوِيَة بنِ بكْرٍ ، وكانَ مُعاويةُ فى خَارِجِ مَكَّة ، فأكْرَمَهُم إكْراماً شَدِيدًا ، لأنَّهُم كانُوا أخْوالَه ، لأنّ أُمَّه وَزَوْجَتَهُ كانَتا مِنْهُم أىْ مِنْ قَومِ عَادٍ .

قَدَّمَ لَهُم مُعاويةُ بنُ بَكرٍ الطَّعامَ ، والخَمْر ، وأَقَامَ لَهُم لَيالى مَليئةً بالأَكْل والشُّرْبِ ، واللَّعِبِ واللَّهْو ، والرَّقْصِ والغِناء ، خَارِجِ مَكَّة ، وكانَ عِنْد مُعاوِية بنِ بَكْر – زَعيمِ مَكَّة – جَاريتَان ، صَوْتُهما جَميلٌ ، فكانَتَا تُغَنِّيانِ كُلَّ لَيْلةٍ .

وارْتاحُوا للإقامة فى هَذا اللَّعِب واللَّهْو ، والأَكل والشُّرب ، حَتَّى مَضَى شَهرٌ وهُمْ خَارِج مَكَّة ، ولَم يذْهَبُوا إلَى بَيتِ اللَّهِ الحَرامِ .

فَلَّما رَأَى مُعاوِيةُ طُولَ لَهْوهمْ ، وأَنَّهمْ نَسُوا المُهمةَ التى جَاءُوا مِنْ أجْلِها ، وقَدْ أرْسَلهُم قَومهُم يسْتَغيثُونَ مِنَ الجَفافِ

الذِى أَصَابَهُم ، والجُوعِ الذِى أَحَاطَ بِهِم ، والهَلاكِ الذِى يُهدِّدُهم ، قالَ فى نَفْسِهِ:

لَقَد هَلَك أَخْوالِى ، وهَؤُلاء لاهُونَ نَاسُونَ ، ولَكنَّهمْ ضُيوفِى ، فَماذَا أَقُولُ لَهُم ؟

واللَّهِ ما أَدْرِى ماذَا أَصْنَع ؟ إِنِّى أَسْتَحِى أَنْ آمُرَهُم بدُخُول مَكَّة ، لِيقُومُوا بطَلَب الفَرجِ مِنْ ربِّ البَيْتِ ، فَيَظُنُّوا أَنَّنِى ضِقْت بِهِم وبِضيافَتِهِم ، وقَدْ هَلكَ قَومُهُم عَطَشاً وجُوعاً . فألَّفَ أُغْنيةً غَنتها لَهُم الجَارِيتَانِ وهُمْ سُكَارَى ، يُذكِّرهم فِيها بالمُهمَّة التِى جَاءُوا مِنْ أَجْلِهَا ، لإنْقاذِ قَوْمهمْ مِنَ الهَلاكِ ، وأَنَّهم نَسُوا هَذِه المُهمَّة ، فَتنبهُوا ، وقالَ بعضُهم لبعْضٍ : يَا قَوْم ، لَقَد بَعَثَنَا قَومُنا يَسْتَغيثُون بِنَا مِنَ البَلاءِ والهَلاكِ ، فَهيَّا بِنَا نَدْخلُ الحَرمَ ، نَطْلُبُ مِنْ ربِّ البَيتِ أَنْ يُرسل المَاءَ لَهُم وقَدْ أَبْطَأنا عَليهِم ، ودخَلَ الوفْدُ مَكَّة ، وذَهبُوا إِلَى بَيتِ اللَّهِ الحَرامِ .

فَقَام رَئيسُهُم ، قَيْلُ بْنُ عَنْزَةَ يدْعُو .. فَقالَ :

اللَّهمَّ إِنِّى لَمْ أَجِئْ لَمريضٍ فأُدَاوِيهِ ، ولاَ لأَسيرٍ فأفْدِيهِ .

اللهمَّ اسْقِ قَومنَا ، قَوْم عَادٍ ، مَا كُنْتَ تَسْقيهِم مِنَ المَاءِ .

فأَنشأَ اللَّهُ – تَعَالَى – لَهُم ثَلاثَ قِطعٍ مِنَ السَّحابِ فى السَّماءِ : واحِدةً بَيْضاء ، وواحِدَةً حَمْراءَ ، وواحَدةً سَوْدَاءَ . وسَمعَ مُنادِياً مِنَ السَّحابِ يناديهِ :

يَاقَيْلُ ، اخْتَر لِنَفسِك ولقَومكَ ، واحِدةً مَنْ تِلكَ السَّحائِبِ الثَّلاثِ .

فَقَالَ : لَقدِ اخْتَرت السَّحابَةَ السَّوداءَ ، فإنَّها أَكْثَرُ السُّحُبِ ماءً[1] .

الرِّيحُ الصَّرْصرُ :

رَجَع وفْدُ عَادٍ إلَى بِلادِهِ ، وأَصْبَحَ القوم فى دِيارِهِمْ ، بالأَحْقَاف ، فى جَنوبِ الجَزيرَةِ العَرَبيَّةِ ، وقَدْ سَاقَ اللَّهُ عَليهم السَّحابَةَ السَّوداءَ التى اخْتَارَهَا لَهُم زَعِيمُهُم قَيْلُ بْنُ عَنْزَة ، فَلَمَّا رَأَوْهَا فَرِحُوا ، واسْتَبْشَرُوا ، وَظَنُّوهَا سَحَابَةً مُمْطِرَةً ، تَرْوِى زُرُوعَهُمْ ، وتَسْقِيهِمْ وتَسْقِى أَنْعَامَهُمْ ، وَتُنْقِذُهُمْ مِنَ الْهَلاَكِ الَّذِى هُمْ فِيهِ ، وفى هَذَا يَقُول تَعَالَى :

---

(١) انظر المصدر السابق .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾[1] .

والعَارضُ هُنَا : يَعْنى الرِّيحَ . وتُدمِّر : يَعْنى تُهْلِكُ .

كانَ أَوَّلَ مَنْ عَرفَ مَا فى السَّحَابةِ السَّوداءِ ، مِنَ العَذابِ والدَّمارِ ، امْرأَةٌ مِنْ قَومِ عادٍ ، لَمَّا رَأَتِ السَّحابَة صَرخَتْ ، ثُمَّ سَقَطَتْ مُغْمَى عليْهَا ، فَلمَّا أَفاقَت سَأَلُوهَا عَن سَببِ صُراخِها ، فقالَتْ : رَأَيْتُ رِيحاً فِيهَا كَشُهُبِ النَّارِ ، أَمَامَها رِجالٌ غِلاظٌ يَقودُونَها ، هَؤُلاءِ الرِّجالُ الغِلاظُ الذِينَ رَأَتْهُمُ المَرْأَة هُمْ مَلائكةُ العَذابِ .

* * *

أَمْسَكَ اللّهُ – تَعالَى – عَنْهُمُ المَطَر ، وسَلَّطَ عَليهِمُ الرِّياحَ مِنْ غَيرِ مَطرٍ ، وهَذا دَليلٌ علَى غَضَبِ اللَّهِ – تَعالَى – لأَنَّ اللَّه إذَا أَرادَ بِقَوْمٍ شَرًّا ، حَبَس عَنْهُم المَطَرَ ، وسَلَّط عَلَيهِم

(١) سورة الأحقاف : آيتا ٢٤ ، ٢٥ .

الرِّيحَ الشَّديدَةَ ، وإذَا أرادَ بِقَوْمٍ خيْراً ، أرْسَل عَليهِم المَطَر ، وحَبسَ عَنهمُ كَثْرة الرِّيح[1] .

وصَفَ اللّهُ – تَعالَى – الرِّيحَ التِى أرْسَلَها عَلَى قَوْمِ عَادٍ ، بِسَبَبِ كُفْرِهم وظُلْمِهم ، وكَثْرةِ ذُنوبِهِم ، وتَعالِيهِم ، بِأنَّهَا رِيحٌ صَرْصرٌ ، فيقولُ تَعالَى :

﴿ وأَمَّا عَادٌ فأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾[2] .

والرِّيحُ الصَّرصرُ : هِىَ رِيحٌ دوَّارةٌ عاصِفةٌ ، تَدُورُ حَوْلَ نَفْسِها ، فَتُهلكُ كُلَّ شَىءٍ ، اسْتمرَّت هذِهِ الرِّيحُ الشَّديدَةُ ، سَبْعَ لَيَالٍ وثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ، يعْنِى مُتَتابعةً .

ونَحنُ الآنَ ، نَرَى بَقايَا هذِهِ الرِّيح ، فى أيَّامٍ يُسمُّونَها : أيَّام الحُسُوماتِ ، فِى آخِرِ فَصْلِ الشِّتاءِ ، وهِىَ الزَّوابعُ التِى تُثِيرُ الأتْرِبَةَ بِشِدَّةٍ .

* * *

(١) القرطبى ١٦/ فصلت .

(٢) سورة الحاقة : آيتا ٦ ، ٧ .

العذَابُ والفَناءُ :

أرْسَلَ اللّهُ عَلَيْهِم هذِهِ الرِّيحَ ، جَبَّارَةً عاتِيةً ، فَكانَتْ تَنْزِعُ النَّاسَ مِن دَاخِلِ مَنازِلِهِم ، وتَقْذِفُ بِهِم إلى الشَّارِعِ ، ثُمَّ تَلفُّ الرَّجُلَ صاعِدةً بِهِ فى طَبَقَاتِ الجَوِّ العُلْيا ، حتَّى يَكونَ فى نَظَرِ الوَاقِفِ فى حَجْمِ العُصْفورِ ، مِنْ شِدَّةِ ارْتفاعِهِ فى الجَوِّ ، ثمَّ تَأتِيهِ رِيحٌ عَكسيَّةٌ مِنْ أعْلاهُ ، فَتدكُّه فى الأرْضِ دَكًّا ، أىْ أنَّهُ يرْتَطِمُ بهَا ارْتِطاماً شَدِيداً ورَأسُه مَغْرُوز إلَى أسْفَل ، ورِجْلاهُ إلَى أعْلَى، فَتَنْدَكُّ رأسُهُ فى داخِلِ جِسْمِه ، فَتراهُ مِثْلَ القَدَحِ المجوَّفِ من الدَّاخِلِ .

هذا التَّشْبيهُ الرَّهِيبُ ، واضِحٌ فى قَولِه – تَعالَى – عَنهُم :

﴿ فَتَرَى القَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[1].

صَرعَى : يعْنِى هَالِكِينَ . وأَعْجاز النَّخْلِ الخَاوية : يعْنِى مِثْل سَاقِ النَّخْلةِ الَّتىقُطِعَتْ رأْسُها ولَيسَ فِيها خوصٌ ، وذَلكَ لِضخَامَةِ أجْسَامِهِم مِثْلَ النخْلَة فى طُولهَا .

---

(١) سورة الحاقة : الآية ٧ .

ونَجِدُ نَفْسَ التَّشْبِيهِ فى قَوْلِهِ تَعالَى ، فى وَصْفِ الرِّيحِ :

﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾(١).

ومنْقَعِر : يَعْنى مقْلُوع عَنْ قَعْرِهِ ومَكان غَرْسِه .

* * *

الرِّيحُ تُخْرِجُهُم مِنَ البُيوتِ :

تقُولُ كُتبُ تَفْسِير القُرآنِ الكَرِيمِ :

بعَثَ اللّهُ عَلَى قَوم عادٍ – الرِّيحَ العَقِيم : وهِىَ الرِّيحُ الَّتِى تُهْلكُهم وتَقْطع نَسْلَهم ، فَلمَّا قَرُبَتْ مِنْهُم ، نَظَرُوا إِلَى الإبِلِ والرِّجالِ ، تَطِيرُ بِهِم الرِّيحُ بَيْن السَّماءِ والأَرْضِ ، فأَسْرعُوا إِلَى مَنازِلِهِم هُروباً مِنْها ، فَلمَّا دَخلُوا بُيُوتَهمْ .. دَخلَتْ عَلَيْهِمُ الرِّيحُ فأَخْرَجَتْهُم مِنْها ، وحَصَلَ لَهُم ما حَصَل ، وهَلَكُوا جَمِيعاً ، فَلَمَّا أَهْلَكَهُم اللّهُ – تَعالَى – أَرْسلَ عَليهِمْ طُيُوراً سَوْدَاءَ فأَلْقتْهُم فى البَحْرِ .

(١) سورة القمر : الآية ٢٠ .

لَمْ تَدَعِ الرِّيحُ أحَداً مِنْ قَومِ عَادٍ إلاَّ أهْلَكَتْهُ ، حَتَّى وَفْدَ عَادٍ الَّذينَ كانُوا فى مَكَّة .. فَقَد أهْلَكهُم اللّه أيْضاً ، ومَعَهُم زَعِيمُهُم : قَيْلُ بنُ عَنزَةَ .

* * *

أمَّا هُودٌ – عَليهِ السَّلامُ – هُوَ ومَنْ مَعهُ مِنَ المؤْمنِينَ ، فَقَد لَجَئُوا إلَى دَارٍ وَاسِعَةٍ ، لا يُصِيبُهُم شَىْءٌ مِنْ تِلكَ الرِّيح ، وأنَّ اللّهَ –تَعالَى – أهْلكَ هَؤُلاءِ الجَبابِرَةِ ، ضِخَام الأجْسَامِ بهذِهِ الرِّيح، لأنَّهمُ اغْتَرُّوا بِقُوَّتهِم وَتَكَبَّروا ، وتَعَاظَمُوا بحَضَارتهِم وَمبانِيهِم العَالِيَة ، وظنوا أنهُ لا شَىْءَ يُدمِّرهَا أوْ يُهْلِكهُم ، فكفَرُوا بربِّهِم ، الذِى خَلقَهم ووَهَبهُم هذهِ الأجْسَامَ القَويَّةَ ، ورزَقَهمْ مِنْ جَميعِ الخَيراتِ .

وماتَ ودُفِنَ نبىُّ اللّهِ – هُودٌ – عَليهِ السَّلامُ – فى بِلادِ حَضرمَوْت[1].

* * *

(١) أبو إسحاق الثعلبى .

مَدينةُ إرمَ :

أمَّا مَدينةُ – إرمَ – فَقَد قالَ المفسِّرونَ عنْهَا :

إنَّ شَدادَ بنَ عادٍ ، كانَ قَد مَلَكَ الدُّنْيَا ، وهَزَم المُلوكَ ، وسَمعَ بذِكْر الجَنَّة ، فَقالَ : أبْنِى مِثْلَها ، فَبَنَى مَدِينَةَ «إرَم» فى بَعضِ صَحارى عَدَن ، بنَاهَا فى ثَلاثمَائةِ سَنةٍ ، وكانَ عُمرهُ تِسعمائةَ سَنةٍ ، كانَ ذَلكَ قَبْل عَصْرِ سَيِّدنا هُودٍ بزَمنٍ كَبيرٍ .

وهىَ مَدِينةٌ عَظِيمةٌ ، قُصُورها من الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، وشُرُفاتها مِنَ الجواهِرِ واليَاقُوت ، وفيها أنْواعٌ كَثِيرةٌ مِنَ الأشْجارِ ، وتُحيطُ قُصورُهاالبَساتِينُ ، وتَنْسابُ بيْنَهَا مِياهُ الجَدَاولِ والأنْهَار، ولَمَّا تَمَّ بِنَاؤُهَا سَارَ إلَيْهَا بأهْلِه ، فَلمَّا قَرُبَ مِنْهَا ، بَعَثَ اللَّه عَلَيْهِمْ صَيْحَةً مِنَ السَّماءِ فأهْلَكَتْهُمْ جَميعاً[1] .

وكانَ ذَلِكَ نَتِيجةً عَادِلةً للتَّحَدِّى لقُدْرَةِ اللَّهِ تَعالَى ، فَهل لَمخْلُوقٍ أنْ يَبْنِىَ لِلْخَلْقِ جَنَّةً ؟! كَلاَّ .. ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أحْسَنُ الخالِقِينَ ﴾ .

(١) النسفى والبيضاوى والكشاف – ٧/ الفجر .

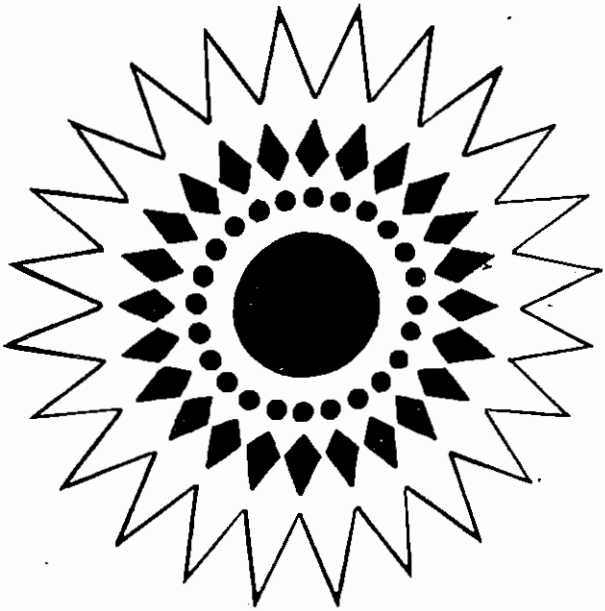

رقم الإيداع	١٩٩٥/١٠٢٤٥
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5125-9

٧/٩٥/١٥٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)